

الحارث بن قصى الأحمسي
في السير والفتوح

طبعة دار الشروق الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة ١٩ شارع حراد جى - هاتف ٣٩٣٤٨١١ - ٣٩٣٤٥٧٨
ولبيا شروق - لكسى 80081 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧١٥ - ٨١٧٢١٣
ولبيا دأشروق - لكسى SHROK 20175 LE

فتنار فوق شوشه

أجلى عشرين قطباً حجب
في السحر العزلي

دار الشروق

هَذَا الْكِتَابُ

بقلم : فاروق شوشة

كثيراً ما كنت أتوقف - أثناء البحث في كنوز لغتنا الجميلة - أمام
نص شعري فائن ، لشاعر عربي عاشق ، ينطق بصدق العاطفة
والشعور ، وجمال التعبير والتصوير والأداء ، وأقول لنفسي : ما السبيل
إلى أن يضمّ هذا النص وأمثاله من عيون الشعر العربي ، كتاب واحد ،
يسهل الاطلاع عليه ، والرجوع إليه ، والطواف بين صفحاته . .
وكانت البداية . .

إن شعرنا العربي على امتداد قرون متطاولة حافل بالكنوز الشينة ،
والدرر الكامنة ، تنتظر دائماً من يجلوها ويعرضها ، مشرقة وضيئة ،
نابضة بالحنس الحضاري والوجدان الإنساني اللذين اتسمت بهما خلال
هذه المسيرة الطويلة الممتلئة . وفي الوقت نفسه ، ما أندر المجموعات
والمختارات الشعرية التي صدرت عن مكتبتنا العربية ، قديمها
وحديثها ، لتضع بين يدي القارئ العربي ، والقارئ الأجنبي أيضاً ،
تصوراً عاماً لروح الشعر العربي ، وإطاراً عاماً لأبرز شخصياته
وأعلامه ، وأكثر ملامحه صدقاً وأصالة ، اللهم إلا بضعة دواوين
شعرية قليلة كالمفضليات للنضبي والأصمعيات لأبي سعيد الأصبغي

وجهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ومختارات شعراء العرب لابن
الشَّجْري .

ثم كان هناك لون آخر في تبويب هذه المختارات وتصنيفها بدأه أبو
تمام بديوان الحماسة وتابعه البحتري ، والحالديان ، وابن الشجري في
حماساتهم ثم أبو هلال العسكري في ديوان المعاني . وأخيراً كان ديوان
الشعر العربي الذي اختاره وصنّفه وقدم له الشاعر علي أحمد سعيد
(أدونيس) . . . وكان صدوره منذ سنوات قليلة .

وظلت المكتبة العربية ، مكتبة الشعر العربي ، تعاني هذا الفراغ
الكبير ، خاصة ونحن نترك الآن عصور الموسوعات والكتب الأمهات
ونتجه مع إيقاع العصر وازدحام متطلبات الحياة إلى المختصرات
والمختارات : المبوّبة ، الموضوعية الاختيار ، المعتمدة في تصنيفها على
ذوق عصري ، وفكر جديد ، يكشفان في الأثر الأدبي والشعري أبعاداً
جديدة ، ويُسلِّطان عليه رؤية جديدة كاشفة ، وبهذا يصبح تعاونا
مع التراث تحاوراً خصباً بناءً ، لا يكتفي بمجرد التكرار أو إعادة
الحفظ والاستظهار ، وإنما يتجاوز ذلك إلى إعادة عرضه وتنسيقه
وتنظيم جداوله وروافده ، وإعادة اكتشافه والوصي به من خلال
حساسيتنا الجديدة ورؤيتنا العصرية المتفتحة ، بهذا وحده نعطي
للتراث فرصة أن يحيا فينا وأن نحيا فيه ، وأن يصبح له حق الامتداد
الفعال والصحيح في حياتنا الجديدة .

وآثرتُ أن تكون البداية قصائد الحب في شعرنا العربي ، وما
أكثرها ، وما أحفلها بالقيم الإنسانية والفنية والحضارية . ماذا لو
اخترت من بينها أجمل عشرين قصيدة ، ليعيد تأملها وتذوقها القارئ

المعاصر ، مع قدر يسير من التقديم ، للنص والشاعر معًا ، بحيث يتم وضع القصيدة في إطار عصرها ، وفي داخل مناخها النفسي والتاريخي ، وفي إطار حركة الشعر العربي ودورانه المستمر .

وتوقعت أن يثور سؤال طبيعي : ولكن لماذا هذا الرقم بالذات (عشرون) ؟ لماذا لم تكن هذه القصائد ثلاثين أو خمسين أو خمسين وعشرين أو أكثر أو أقل ؟

وهو سؤال كان سيتخذ له مكانًا أيضًا لو أن الاختيار قد وقع على رقم آخر ، والأرقام أولاً وأخيراً مسألة اعتبارية ! .



هذا الكتاب إذن رحلة مع عشرين قصيدة حب ، تبدأ من تخوم العصر الجاهلي ، فنتخير لهذا العصر شاعرًا يمثل حسنيته ونهمه وإقباله على متع الحياة وتوزعه بين يوميه : يوم فروسيته وكرمه ويوم لهوه ومؤانسته ، وهي سمات العربي الفارس القديم ، في حبه ونظرته إلى المرأة كما نجد لها لدى المنخل الإشكري .

ثم نتابع المسيرة ، وقوفًا مع صفحات شعرنا الأموي والعباسي ، يطالعنا وجه عمر بن أبي ربيعة : فتى قريش اللامعي الماجن المولع بتعقب الحسان والتشبيب بهن ، ووجوه الصفوة الممتازة من الشعراء العذريين : مجنون ليلى وجميل بثينة وقيس لبنى وكثير عزة ، وعلى مقربة من هؤلاء العباس بن الأحنف ، وبين الطائفتين ينفرد يزيد بن معاوية ، ثم نطالع وجوه ابن الرومي وأبي فراس الحمداني والشريف الرضي ودوقلة المنبجي وابن زريق البغدادي ثم صفى الدين الحلبي - على غير ترتيب مقصود - وكلها وجوه تضيف لتجربة الحب في الشعر

العربي ألوانًا وتنوعات ومذاقات مختلفة ، تُثريها وتعمقها ، وتكشف عن جوهر الإنسان العربي والشاعر العربي في نظريته إلى الحياة والوجود من خلال المرأة . .

وعلى مسافة من هؤلاء نلتقي بوجهين آخرين يمثلان شعر الأندلس والمغرب العربي هما : ابن زيدون والحُصري القيرواني ، ثم يطالعنا العصر الحديث لتتغير من بين أعلامه : الشابي وعلي محمود طه وإبراهيم ناجي ومحمود حسن إسماعيل .



يبقى بعد هذا أن نشير إلى أن كل قصيدة من هذه القصائد العشرين امرأة جميلة ، امرأة معشوقة ، افتن في تصويرها وتجسيد مفاتها والهيام بها شاعر عربي ملهم ، أضفى عليها من إبداع ريشته وحرارة عاطفته ما جعلها لوحة مكتملة الأبعاد والسمات غنية بالفن الجميل ، والشعور الصادق معًا .

فلنتأمل نحن - بذوق أبناء القرن العشرين - هذه الباقية من قصائد الحب ، ولنتأمل كيف كان الشاعر العربي يرى محبوبته وكيف كانت صورتها في نفسه ، شكلاً وملامح ووجداناً ، وإلى أي حد يلتقي الكثيرون من الشعراء في رسم لوحة بعينها هي صورة هذه المحبوبة من الخارج ، تمثال جمال ، بمقاييس خاصة ، من خلال ذوق صحراوي معين ، خلع ظله على عصور شعرية متتابعة .

ثم لتأمل كيف استطاع الشعراء العذريون أن يكسبوا تجربة التعبير عن الحب أعماقاً جديدة وملامح وسمات لم تكن لها ، وكيف أصبحت نظرتهم إلى المرأة المحبوبة نظرة إلى كائن إنساني ، يمجج بالمشاعر

والعواطف والأحاسيس ، وكيف ترك لنا هؤلاء العذريون في قصائدهم خلاصة لوعتهم وحرمانهم وتعففهم وعشقهم السامي المجرد ، هذا العشق الذي رفدته تقاليد البادية العربية ثم غدته قيم الإسلام ومثله العليا ، فالتقت فيه قيم الفروسية والنبيل والنخوة بقيم التعفف والتسامي والتطهر ، والذي أصبحت آثاره الشعرية - فيما بعد - ذخيرة فنية واجتماعية وحضارية نادرة المثال ، موفورة العطاء .

ثم لنمض مع قصيدة الحب العربية نفاذاً في التاريخ ، وعبراً إلى أقطار وبلدان عربية جديدة ، وتجسيداً لحلم العاشق العربي ، في بغداد والقيروان والأندلس وتونس والقاهرة ، عبر عصور شتى ، وتراكبات حضارية ونفسية شتى ، فهي مرصد صادق التمييز والرصد لحقيقة هذه المسيرة التي قطعها الإنسان العربي في رحلة الزمان والمكان ، منطلقاً من إسهار الماضي والمتوارث انعطافاً إلى آفاق الجدة والمعاصرة .

ولسنا نزعم أن هذه القصائد ، هي وحدها أجمل القصائد وأروعها وأكثرها ثباتاً لحقيقة شعر الحب في ديوان الشعر العربي الكبير ، إنه مجرد اختيار خاص ، ساعد عليه ميل وهوى ، كثيراً ما تتجاذبنى إلى بعض القصائد المختارة ، فعشت فيها طويلاً ، وتأملت فيها كثيراً ، فلما سنحت الفرصة لوضعها داخل هذا الإطار كانت أسبق من غيرها إلى ذاكرتي واهتمامي ، فعنيت بها قبل سواها . .

ومن المؤكد أن في شعرنا العربي عشرات بل مئات من قصائد الحب الجميلة ، لم تزل قابضة في مكانها بين الصفحات المطوية ، التي تراكم

عليها الإهمال والنسيان ، وأكاد أحس بها تتململ في رقدتها الطويلة ،
لعل يداً تمتد إليها ، تنفض عنها الجحود والتنكر ، وتعيدها إلى مكانها
من دائرة اهتمامنا وتدوقنا . . وفي هذا فليتنافس المتنافسون . ولا شك
أن قارئنا العربي هر الرابح في النهاية عندما يجد بين يديه عشرات
المختارات والمصنّفات والدواوين التي تعيد ماء الحياة إلى هذه الكنوز
الدفينة ، واللوحات الفنية الإنسانية النادرة .

وأتركك أيها القارئ ، مع هذه القصائد العشرين ، التي تشكل في
مجموعها وثيقة شعرية وعاطفية فريدة ، تعطي لحناً أساسياً ممتداً ،
متعدد الإيقاعات والأنغام ، متنوع المقامات والضروب ، لتعبير
الشاعر العربي عن تجربة الحب .
وما أروع من تعبير !

فأروى شوشة

فتاة الخذر

للمفخك اليشكري

غاية ما تقوله لنا عنه كتب الأدب والتراث إنه شاعر جاهلي ، حفظ لنا الرواة قصيدة له ، لامية ، ماجنة ، وهو إلى جانب هذا شاعر منظر مؤثر للسهولة في القول .

فإذا ما أردنا الاستزادة ، ورجعنا إلى أمهات كتب التراث وجدناها تقول عن هذا الشاعر : اتهمه النعمان بن المنذر بامرأته المتجردة ، وكانت ذا جمال فاتك ، فأغرقه أو دفنه حياً ، أو أخفاه ، ويضرب به المثل لمن هلك ولم يعرف له خبر .. مات كما يروى سنة ستائة وثلاث ميلادية .

لتحاول إذن أن نسلك سبيلاً آخر يقربنا إلى هذا الشاعر الجاهلي الذي استطاع أن يعيش في ذاكرة الشعر العربي بقصيدة واحدة ، ليست من معلمات العرب ، ولا مذهبياتهم ، ولا هي من حماسهم ومفاخرهم ، ولا هي في تسجيل مآثرهم ومفاخرهم - إنها شيء آخر غير هذا كله .. وليكن هذا السبيل هو قصيدته

نفسها ، نستقرئها حقيقة هذا الشاعر ، وصورة نفسه ، ونطل
منها على وجدانه وأشواقه ومطامحه ..

شيء ما يلتفت النظر في قصيدة المنخل بن الحارث اليشكري
— وهذا هو اسمه الكامل — ذلك هو ما فيها من ظرف ورقة
وفكاهة ، فهي تنطلق بشخصية ذلك العربي القديم ، يوماً
يوم وغى وطعان ويوم متعة ولهو وانطلاق ، اليوم خمر وغداً
أمر — كما يقول امرؤ القيس — هذان الوجهان لعملة الحياة
يمثلان معاً رحلة الوجود بالنسبة لهذا العربي القديم ، حتفه في
شبابته وفروسيته ، ومتعته في نشوته وبجونه بلا حدود .

لكن هذا الظرف وهذه الفكاهة ، تباورهما القصيدة على
نحو غير مألوف في الشعر العربي القديم . إن الشاعر الفاتك
الجزور ، يقتحم الحيد على فتاته في يوم لهو ومتعة ، وهو
يختار للهو ومتعته يوماً مطيراً ، لا يصلح لصيد أو قتال أو
زيارة ، وإنما هو يوم مؤانسة وفراغ بال ، وهو يبادلها حواراً
يشف عن رغبته الجامحة ونزوته العارمة ، فهي تلمس ما يحسمه
من حرور ، أي من حرارة واشتعال ، دليل فحولته
ورجولته ، وتسعد فتاته بهذا الاقتحام وتطرب له وتهش ،
والشاعر يخشى أن يتبادر إلى الذهن أن متعته بفتاته هذه
متعة عابرة ، فيعطي لعاطفتها وعلاقتها المشتركة عمقاً في الزمان
حين يؤكد بروح مرحة أنه يحبها وتحبه وأن بعيره أيضاً
يحبها ، يؤكد لظول أمد الحبة وطول الإلفة بين العاشقين .

ثم يمعن شاعرنا الفاتك الجسور - والذي سنجعد له أشباهاً
في شعرنا العربي بعد ذلك - كوضاح اليمن وعمر بن أبي ربيعة
ومسلم بن الوليد (صريع الغواني) وغيرهم - يمعن في تطرفه
أكثر وأكثر ، مصوراً حاله وقد تملكته نشوة الشراب ،
وسرت فيه حميتا الحر فتخيل نفسه الملك النعمان رب
الخورنق ، وصاحب السرير - أي العرش - بلفة ذلك
الزمان ، فإذا صحا ، وعاد إليه صوابه وجد نفسه كما كان
رب الشوثة والبعر ، لا يملك إلا ما يملكه العربي البسيط
شيء وبعر.. والمقابلة هنا بين الحالين : حال نشوته وتصورات
وحال صحوه وعودته الى الواقع مقابلة طريفة ، صاغها الشاعر
صياغة عذبة ، لا تكلف فيها ولا صنعة ولا تزويق ..

يبقى بعد ذلك أن نشير إلى لغة هذا الشاعر الفارس
الفاتك ، وتراوحها بين الجزالة والجيشان والوقع الأسر في
مستهل قصيدته وهو يتحدث عن شجاعته وفروسيته ومشاركته
للفرسان والأقران ، وبين نعومتها وسهولتها وانسيابها عندما
انتقل الى الحديث عن لهوه وبجونه وشرابه وتخيلائه ، وكأنه
يعطي لكل وجه من وجهي حياته لغته الشعرية الموائمة في
التعبير ، وإيقاعه الموسيقي المواكب في النفس والوجدان .

ولقد تركت هذه القصيدة - على بساطتها وقصرها وسهولتها
المتنعة - أثراً عميقاً في أشعار كثيرين حاولوا استلهام الروح
المفعم بالحياة لدى المختل ، وقدرته الفذة على التصوير الموحى ،

بأبسط الألوان والظلال ، حتى إننا نجد شاعراً حديثاً هو علي
الجارم يقول في إحدى قصائده مخاطباً « بغداد » وكان وقتها
يمثل مجمع اللغة العربية في أحد مهرجانات العلم والأدب :

حتى يكاد يحبُّ نخلك نخلٌ أهلي في رشيدٍ

وهو هنا ينظر إلى بيت النخل :

وأحبُّها وتحبُّني ويحبُّها فأقتها بعيري

وقبل الجارم يعصور بعيدة ، موشة في القدم ، نجد الصورة
الرئيسية أو المشهد الرئيسي الذي تصوّره قصيدة النخل
- مشهد اقتحام الخدر على الحبورية - متكرراً في شعر
« وضاح اليمن » الذي عاش بعد وفاة النخل بحوالي مائة عام :
وهو يقول :

| | |
|---------------------------|-----------------------|
| قالت : ألا تلعجن دارة | إن أبا رجل غائر |
| قلت : فلاني طالب غرة | منه وسيفي صارم باتر |
| قالت : فإن القصر من دوننا | قلت : فلاني فوقه ظاهر |
| قالت : فإن البحر من دوننا | قلت : فلاني سابح ماهر |
| قالت : فحوّلي إخوة سبعة | قلت : فلاني غالب قاهر |
| قالت : فإن الله من فوقنا | قلت : فريتي راحم غافر |
| قالت : لقد أعييتنا حجة | فأت إذا ما هجع السامر |
| واسقط علينا كسقوط الندى | ليلة لا ناي ولا زاجر |

كما نجد المشهد نفسه متكرراً في شعر عمر بن أبي ربيعة ،
وهو يصف اقتحامه خباء محبوبته « نثم » وقد أخذ يترقب
مغيب القمر ورواح الرعيان ونوم السمار :

فلما فقدتُ الصوت منهم وأطفئت
مصابيحُ شُبْتُ بالعشاء وأنور
وغاب قنير ، كنت أرجو غيوبه
وروح رعيانٍ ونوم سحرٍ
وخُفْتُ عني الصوتُ ، أقبلت مشية الـ
حباب ، وشغصي خشية القوم أذور^(١)
فحييتُ إذ فاجأها ، فتولت
وكادت بخفوض التحية . تجهرُ

وسوف يطالع القارئ النص الكامل لقصيدة عمر بن أبي
ربيعة بين صفحات هذا الكتاب ..

أما الآن فلإلى قصيدة المتخل اليشكري :

(١) ويرى البيت أيضاً : دركني خشية القوم أذور .

فتاة الخندور

شجاعة وكرم :

إن كنت عاذلتي فسيري
نحو العراق ، ولا تحوري ^(١)
لا تسألني عن جلّ ما
لي ، وانظري كرمي وخيري ^(٢)
وفوارس كأوار حرّ
النار أحلاس الذكور ^(٣)
شدّوا دوابر بيضهم
في كلّ محكة القتير ^(٤)
واستلّموا ، وتلبّوا
إنّ التلبّ للمفير ^(٥)

(١) عاذلتي : لاثقي ومعانتي . لا تحوري : لا ترجمي .

(٢) جلّ مالي : كثرة مالي ومعظمه .

(٣) الأوار : شدة التوهج والاشتعال . أحلاس الذكور : فوارس الخيل الملازمون لظهورها .

(٤) الدوابر : الأواخر . البيض : جمع بيضة الحديد وهي تلبس في الرأس . القتير : مسامير الدروع .

(٥) استلّموا : لبسوا اللامات وهي الدروع . تلبّوا : أي تحزّموا ، وهي علامة التأهب للإغارة على العدو .

وعلى الجيادِ المضمرا
تِ فوارسٌ مثل الصقورِ^(١)
يخرجن من حلل الغيا
رٍ يحفن بالنعم الكثيرِ^(٢)
أقررتُ عيني من أول
ثك والفوائح بالمبيرِ^(٣)
وإذا الرياح تناوحت
يحوانب البيت الكبيرِ^(٤)
ألفيتني هشّ اليدي
نِ ، بمرى قداحي أو شجيري^(٥)

-
- (١) المضمرا : التي ضمرت . أي هزات من كثرة الرياضة وسرعة الحركة .
(٢) يحفن : يسرعن .
(٣) من أولئك : أي من الفوارس . الفوائح بالمبير : النساء الذكيات الرائعة .
(٤) تناوحت : هت من كل ناحية . الكثير : المشدود إلى الأرض بالخيال .
(٥) ألفيتني : وجدتني . هشّ اليدين : خفيف اليدين . بمرى قداحي : بإجالاته ودورانه . الشجير : الغريب (إذا حل الجذب وجدتني خفيف اليدين كرمًا رجوداً أوزع أقداحي) .

وأحبها وتحبني :

ولقد دخلتُ على الفتا
ةِ الحِدرِ في اليومِ المطيرِ^(١)
السَّاعِبِ العِسلامِ ترفُ
لُ في الدَّمَقِسِ وفي الحريرِ^(٢)
فَدَفَعْتُهُمَا فَتَدَافَعَتَا
مَشَى القِطَاةُ إلى الغديرِ^(٣)
ولَثَمْتُهُمَا فَتَنَفَّسَتَا
كَتَنَفَسَ الظُّبْيُ الغَرِيرَ^(٤)

ويروى البيت أيضاً :

(وعطفتهمَا فتعطفتَا
كتعطف الظبي الغرير)
فَدَنَتِ وَقَالَتْ ، يَا مَنْخَسِلُ
مَا يَحْسَمُكَ مِنْ حَرُورِ^(٥)

-
- (١) اليوم المطير : اختاره الشاعر لأنه يوم الموانسة وقراغ الببال
لا صيد فيه ولا غارة ولا زيارة .
(٢) السَّاعِب : التي رداً قديماً في النهود . الدَّمَقِس : الحرير الأبيض .
(٣) القِطَاة : نوع من الطير يشبه الحمام ، وقيل : هو الحمام .
(٤) الغرير : ولد الطي وهو صغير .
(٥) الحرور : شدة الحرارة والتوهج .

ما شفاً جسمي غيرُ جـ
 ملكٍ ، فامدثني عنثي وسيري^(١)
 وأحبها ————— وتحبني
 ويحبُّ ناقتها بميري

خيالات النشوة :

يا ربّ يومٍ للمنخ
 لـ ، قد لها فيه قصير
 ولقد شربتُ الخمر بال
 خيلِ الإناثِ وبالذكورِ
 ولقد شربتُ الخمر بال
 جـدِ الصحيحِ وبالأسيرِ
 ولقد شربتُ من المدا -
 مةٍ بالصغيرِ وبالكبيرِ^(٢)

(١) ما شفاً جسمي : ما هزله وأضعفه . امدثني عنثي : الزمعي
 الكون عنثي .

(٢) بالصغير وبالكبير : بصغير ماله وكبيره . أو بالدرم وبالدينار .
 أو بالقدح الصغير والقدح الكبير .

فإذا انتشيت^١ فإنني
 رب^٢ الخورنق^٣ والسري^١
 وإذا صحت^٢ فإنني
 رب^٢ الشوينة^٣ والبمير^٢
 يا هند^٣ من^٢ لتيتم^١
 يا هند^٣ .. للعاني الأسير^٣

(١) الخورنق : قصر النمسبان قرب النجف في العراق . السري :
 يقصد به العرش ، ويروي : « السدير » : وهو قصر آخر في الحيرة
 بالقرب من الخورنق اتخذ النعمان الأكبر لبعض ملوك المعجم .
 (٢) إذا صحت : إذا ذهبت نشوة السكر . رب الشوينة والبمير :
 عربي لا يملك شيئاً إلا الشياء والبمير .
 (٣) هند : بنت النعمان بن النضر بن ماء السماء حاكم الحيرة . العاني :
 المقيد .

نفس

لعمر بن أبي ربيعة

وهذا فتى قريش المدلل ، وأول شاعر ينبغ من بينها
ويطير ذكره في القبائل ، وإذا بلغة الضاد على شفتيه تكلسي
رداءها القُرْشيّ ، وطابعها العربي الأصيل ، في رقّة تفتن
القلوب وتستهوي الألباب ، وديباجة جزلة ولكنها ناعمة ،
متينة السبك غير أنها تفيض سلاسة وليونة ..

عند عمر بن أبي ربيعة ، ينعطف الشعر العربي ، ويتخذ
سمتاً خاصاً ومذاقاً خاصاً . هنا ، للمرة الأولى في تاريخ هذا
الشعر ، يفاجئنا شاعر مطبوع ، يدور شعره كله حول موضوع
واحد هو الغزل ، شاعر لا يمدح ولا يهجو شأن غيره من
الشعراء ، إنه فقط يحبّ ، ويعلن عن هذا الحب في شعره ،
ديوان شعره كله ديوان حب ، والقصيدة الواحدة من قصائده
قصيدة حب كاملة . كان الغزل في شعر الشعراء - قبل عمر -
شيئاً يتخفى أو يبين داخل غيره من أغراض القصيد ، وهو

في الأكثر الأعم مدخلٌ يُفضي إلى الغرض الرئيسي من القصيدة ، أو هو حُسنُ استهلالِ يصل من خلاله الشاعر إلى موضوعه الجوهرى مدحاً أو فخرأ أو هجاء أو تأملاً .

وشاعرتنا - الذي ولد ومات بالحجاز (من ٦٤٤ إلى ٧١٢ ميلادية) وعاش بمكة ، وكان يتردد على المدينة واليمن والشام والعراق - قد أتبع له من شبابه وجسالة وفتوته وشاعريته وعراقة أصله وراثته فضلاً عن كونه وحيد أمه ، ما يشر أمامه سبيل العيش اللاهى العايش ، وهيتاً له أفانين المتعة واللهو ، يتنقل من غاية إلى غاية ، ومن التشبيب بحسناء إلى الولع بأخرى ، ومن تتبع خطا قرشية إلى التفزل بأخرى غير قرشية ، وما أكثر ما كانت مواسم الحج ، بالنسبة له ، مواسم للحب واللذة والدوران وراء اللاتي قدمن للحج ، من بقاع الوطن للإسلامي ، يتعرض لهن ، ويشبب بهن ، وينسج حولهن الأقاصيص في شعره ، ويحاورهن ، ويترقب خروجهن للطواف عرصات ، فيقمن من فؤاده موقعاً يملك عليه لبتة ، وما يلبث شعره أن يسير ويروى ويتناقله الركبان والسمّار . وبعض هؤلاء اللاتي قدمن للحج قد بلغتهن قصص عمر وأفاعيله وأشعاره ، ووددن لو كان لهن حظ من شهرة ينلنها بفضل أبيات قليلة منه . إن التفات عمر إليهن - دون غيرهن - سخطوة وتكريم ، وذكرهن في شعره مجد وأي مجد ، يتهن به على الصواحب والأتراب .

وفقى هذا شأنه ، لا يمكن أن يعلق فؤاده بواحدة من
النساء يصدق لها الحب والمهد ، كلاً ، وإنما هو فؤاد قلق ،
طائر ، متنقل ، سريع الزهد والعزوف ، دائم البحث والتنقيب
والتجول ، لذلك قلن يفاجئنا أن نطالع في شعره أسماء شتى
لمحبوبات توقف عندهن بعض الوقت ثم واصل تطوافه وتجواله .
ليس هناك إذن اسم واحد ، لمحبوبة واحدة ، يكن لها حقل
الحب وكل الاخلاص ، وليست هناك معالم واضحة لهذا الحشد
من الحسان ، إنه دائماً يصفهن من الخارج ، القوام والوجه
والعينين والفم والمشية والشعر ولا يفوته أيضاً أن يصف اللون
والصوت ، هو دائماً وصف من الخارج قد تتشابه فيه الموصفات
والمقاييس ، لكننا لن نجد من خلاله شخصاً حياً ، لها تفردها
وتوهجها الخاص ، لها إنسانيتها المتميزة . وعمر في هذا شأنه
شأن غيره من الشعراء العرب القدماء ، وإن كان ينفرد من
بينهم بما أوتي من نفاذ إلى خوالج نفس المرأة ، وقدرة على
تصوير عواطفها وأهوائها ونزواتها ، وتقلبها ، وإحاطة
بحركاتها وإشاراتها ولغاتها وأساليب حديثها وطرق تعبيرها .
بما ينمّ عنه شعره الذي وصل إلينا . هذا الشعر الذي تأثر
بازدهار الغناء في عصره ، فجاء على صورة مقطوعات أكثر منه
على صورة قصائد ، وفي أوزان خفيفة أو مجزوءة ، والفاظ
سهلة واضحة حلوة الجرس والرنين .

وفي شعر عمر بن أبي ربيعة ، نطالعنا ، ولأول مرة في

شعرنا العربي ، القدرة على القصّ وكتابة شعر الغزل القصصي ،
فالكثير من قصائده تجارب عاطفية في إطار من القصة ، يتخللها
غالباً حوار بين شخصها وأبطالها ، وهو مستوى من التعبير
الشعري القصصي تفوّق به عمر كثيراً على أستاذه الأول في
هذا الفن - امرئ القيس - كما تفوق بقدرته الخارقة على فهم
نفسية المرأة وتمثّل حالاتها المختلفة ، والقدرة على خلق الحوار
الطبيعي النابض بالحياة والجمال والطرافة .

هذا الشاعر المترف الملول ، الكثير التقلب والتنقل من
واحدة إلى أخرى ، هو أيضاً شاعرٌ معجب بنفسه بكل
الإعجاب ، شاعر نرجسيّ يمتليء شعره بذكر تهافت الحسان
عليه ، وإعجابهن به وبشعره ، ومن هنا نجد في قصائده لونا
من التشبيب بنفسه ، والحديث عن طلب النساء له وسميّن
في إثره :

ثم اسبطرت تشد في أثري

تسأل أهل الطواف عن عمر

إنه المطلوب وليس الطالب ، وهو المطارد وليس المطارد ،
وهو من تتعرض له النسوة في الطريق بالغمز والإشارة ، وهو
من يصفنه بالقمر ، ويهين له سبل اللقاء في الخلوات ، ويدبرن
بينهن وبينه رُسلًا يحملن إليه رسائل الوجد والشوق والهيام :

هل من رسول يكلي حوائجنا

بحساجة تشتهي إلى عمر ؟

وهنّ في قصائده يتحدثن عنه حديث من تيسن الحب
وبرّح بهن الميام ، وما أسعدهن به حين يطلع عليهن بمتعياً
جواده الأغرّ وهن منقسات في الحديث عنه والتلذذ بذكره :

قلن : يارضينها : مُثِثْنَا
لو أتاها اليوم في مرّر عمر !
بينما بذكرني أبصرني
دون قيد الميل ، يعدو بي الأغر

قالت الكبرى : أتعرفن الفقى ؟
قالت الوسطى : نعم ، هذا عمر

قالت الصغرى وقد تيسّتها :
قد عرفناه ، وهل يخفى القمر !

فأي زهو بالنفس وأي افتتان بالذات ؟

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن من شعر عمر بن أبي ربيعة
تحمل كل خصائص شعره وميمات شاعريته ، فضلاً عن أنها
أطول قصائده نفساً وأشهرها بين الرواة ودارمي الأدب ،
ومتذوق شعرنا العربي .

القصيدة تدور حول واحدة من محبوباته هي « نعم » ،
ويستهلها بالحديث عن شمل غير مكتمل وحبل غير موصول ،

وحنين إلى صاحبتة هذه التي حالت الحوائل بينه وبينها ، وفي مقدمة هذه الحوائل أقاربُها الذين يقطعون الطريق عليه ويتنمرون له . ثم يصل بنسا إلى جوهر القصيدة حين يصف - في مهارة واقتدار - ليلة «ذي دُوران» حين أخذ يترقب نوم المحيطين بنُعم ، حتى إذا هجموا وأطفئت المصابيح ونام السَّار فاجأها بالزيارة ، ثم هو يصف وقع المفاجأة عليها ، وما دار بينها من حوار وهي متوجسة خائفة من الفضيحة لو أحس بها القوم - وينتهي الحوار بقولها لعمر :

فأنت - أبا الخطاب - غير مدافع
عليّ أميرٌ ، ما مكثت ، 'مؤمّر'

وبييت معها عمر ، وبلدٌ له الوصال ، ويا له من ملهى ومجلس لم يكدره مكدر ، وتقضي الساعات وهما في نشوة اللقاء ، حتى يروعها صوت المئادي يؤذّن للرحيل وقد أوشك الليل على الانقضاء . وهنا تبلغ القصة قمتها وتستحكم عقدتها ، لقد استيقظ القوم وتنبهوا ، فكيف لعمر أن يغادر الحي دون أن يحسوا به ، وتدبّر له صاحبتة الخرج ، تفضي لأختيها بالأمر لعلها تعينان عليه ، وتعطيه الصغرى رداءها فيرتديه ، ويمشي بينهما حتى يغادر ، فلا السر يفشو ولا الفضيحة تقع ، ولا ينسى وهو يختم قصيدته بعد أن نجا بتدبير الأختين ، لا ينسى أن يغبط أهل صاحبتة برائحتها الطيبة ومذاق لها المسكر..

وكأنه يريد أن يقول إن أثر هذه الرائحة المعطرة وهذه
الأعطاف الناعمة ما يزال عالماً بذاكرته لم يفارقه بعد .

يبقى بعد هذا أن نشير إلى الصنعة الشعرية المتقنة التي
تنبض بها هذه اللوحة الشعرية الفاتنة من آثار عمر بن أبي ربيعة
وإلى القدرة الفذة على التصوير والتجسيد وتوزيع الألوان
والظلال ، خاصة وهو يرسم المجال النفسي لشخصه وأبطاله ،
وإلى الإيقاع الموسيقي المواكب لحركة النفس هدوءاً واندفاعاً ،
قلقاً واطمئناناً ، وإلى التفنن في تصوير الإطار الطبيعي للمشهد
وقد غاب القمير وهجع السمار وواتت الفرصة ..

وقصيدة « نعم » بعد هذا كله شاهد صدق على مفاخرة
شاعر قاتلك ، معجب بنفسه ، مفتون بذاته ، وبحظوته لدى
النساء ، واقتداره على الوصول إليهن ، شاعر استطاع أن يخط
في مسيرة الشعر العربي عامة ، وشعر الغزل والحب خاصة ،
أولاً فريداً غير متكرر ، تلتهم جذوره البعيدة إلى امرئ القيس
وتنتهي فروعه القريبة إلى نزار قباني .

يقول عمر بن أبي ربيعة :

« نَعَمْ »

استهلال وشوق :

أمن آل 'نعم' أنت غادر فبكرك
غداة غدير ، أم رائح فهجرك (١)

لحاجة نفس لم تقل في جوابها
فتبلغ عذراً والمقالة 'تعذر'

نعم إلى 'نعم' ، فلا الشمل جامع
ولا الحبل موصل ، ولا القلب مقصر

ولا قرب 'نعم' إن دنت لك نافع
ولا نأيا يسلي ، ولا أنت تصبر

وأخرى أنت من دون 'نعم' ومثلها
نهي ذو النهي لو ترعوي أو تفكر (٢)

إذا زرت 'نعماً' لم يزل ذو قرابة
لها ، حلتها لاقيت ، يتنمر

(١) غادر فبكرك : أي سائر في الصباح الباكر قبل طلوع الشمس .
الرائح : السائر في الرواح وهو وقت العشي . المهجرك : السائر في الهجرة
وهي الحر الشديد .

(٢) النهي : العقل . ترعوي : ترجع عن الضلال .

عزیز علیہ أن أَلُمُّ بیئتها
 'یسر' لی الشحنة، والبغض 'مظهر' (١)
 أَلِکْنِ لیلی بالسلام، فإنه
 یشر' إلامی بها وینکر' (٢)
 بآية ما قالت غداة لقیتها
 «مدفع أکنان» : أهذا المشر' ؟ (٣)
 أشارت بمدراها، وقالت لأختها :
 أهذا المغير' الذي کان یذكر ؟ (٤)
 أهذا الذي أطريت نعتاً، فلم أکن
 وعیشیک، أنساء إلی يوم أقبر' (٥)
 فقالت : نعم، لا شک غیر لونه
 'سری اللیل یحیی نصه، والتهجر' (٦)

-
- (١) الشحنة : الكراهية والبغضاء .
 (٢) أَلِکْنِ : أي أهل رسالي . بشر : يذاع .
 (٣) «مدفع أکنان» : اسم موضع .
 (٤) الدوی : حديدة يحك بها الرأس . المغير : أي عمر . نسبة
 إلی المغيرة جد أبيه .
 (٥) أطريت نعتاً : أحدثت وصفاً .
 (٦) یحیی نصه : یحیی بروره وانتضاءه . التهجر : السير فی المجاورة
 وهي الحر الشديد .

لئن كان إياه ، لقد حال بعدنا
عن العهد ، والإنسان قد يتغير^(١)

صورة وصفية للشاعر:

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت
فيضى ، وأما بالعشي فيخصر^(٢)
أخا سفر جواب أرض ، تقادفت
به فلات^(٣) ، فهو أشعث أغبر^(٤)
قليل على ظهر المطية ظلّه
سوى ما نفى عنه الرداء^(٥) الشجر

وصورة لحال الحبيبة :

وأعجبها من عيشها ظلّ غرفة
وريتان ملتفّ الحداثق أخضر

-
- (١) حال : تغير .
(٢) عارضت : أي قابلت وواجهت . يضي : يتعرض ، للشمس .
يخصر : يشتد به البرد .
(٣) الفلات ، جمع قلاة وهي الصحراء .
(٤) الرداء اغبر ، المزين والمطرز .

ووالِ كفاها كل شيء شيهها
فليست لشيء آخر الليل تسهر^(١)

وصف المغامرة الليلية :

وليلة « ذي دوران » جشمتني السرى
وقد يحشم الحول الحب المفر^(٢)
فبت رقيباً للرفاق على شفا
أحاذر منهم من يطوف وأنظر^(٣)
إليهم ، متى يستمكن النوم منهمو
ولي مجلس لولا اللبانة أوعر^(٤)
وباتت قلوصي بالعراير ورَحَلُها
لطارق ليل ، أو لمن جاء ، مَمُور^(٥)
وبت أناجي النفس : أين خباؤها ؟
وكيف لما آتني من الأمر مصدر ؟

(١) الوالي : الزوج أو القيم . كفاها كل شيء : أي كمل لها كل احتياجاتها ورغائبها .

(٢) « ذي دوران » : اسم مريض . جشمتني : أي كلفتني . المفر : الذي يعرض نفسه للهلاك .

(٣) على شفا : على حذر وتربص .

(٤) لولا اللبانة : لولا الحاجة والموى .

(٥) قلوصي : ثققي . مَمُور : أي ظاهر واضح .

فدلّ عليها القلب ربّاً عرفتها
 لها ، وهوى النفس الذي كاد يظهر^(١)
 فلما فقدت الصوت منهم ، وأطفأت
 مصابيحُ نُشِبَتْ في العِشاء وأنورُ
 وغاب 'قبر' كنت أرجو غيوبة
 وروح رعيان^(٢) ونوم 'سمر'
 ونفضت عني التوم ، أقبلت مشية الـ
 حجاب ورُكّني خشية القوم أزور^(٣)
 فحييت إذ فاجأته ، فتولّيت
 وكادت بخفوض النحيّة تجهر^(٤)
 وقالت وعضّت بالبنان : فضحتني !
 وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسرُ
 أريتكَ ، إذ هُنا عليك ، ألم تخف ؟
 وقيت ، وحولي من عدوك حُضر^(٥)

(١) الرّيتا : الرائحة الذّكية .

(٢) مشية الحجاب : أي كما تمشي الحية ، وركّني أزور : أي وجسمي
 مائل منعطف خشية أن يراني أحد .

(٣) تولّيت : اشتد بها الوجد .

(٤) أريتكَ : أي قل لي وأخبرني ، أصلها أرايتكَ . 'حضر' : أي
 حاضرون .

فوافقه ما أدري أتسجّل حاجة
سرت بك ، أم قد نام من كنت تحذر ؟
فقلت لها : بل قادني الشوق والهوى
إليك ، وما عين من الناس تنظر
فقلت وقد لانت وأفرخ روعها :
«كلاك بحفظ ربك المتكبر» (١)
فأنت ، أبا الخطاب ، غير مدافع
علي أمير ، ما مكثت ، مؤتمر (٢)
فبت قري العين ، أعطيت حاجتي
أقبل فاما في الخلاء فأكثر
فيا لك من ليل تقاصر طوك
وما كان لي قبل ذلك يقصر
ويا لك من ملهى هناك ، ومجلس
لنا ، لم يكدره علينا مكدر

(١) أفرخ روعها : هدأت نفسها . كلاك : وعاك وحفظك .

(٢) أبو الخطاب : كنية عمر بن أبي ربيعة . غير مدافع : غير منازع .
مؤمر : أي لك الأمر والسيادة علي .

يَجْ ذَكِي الْمَسْكُ مِنْهَا مَفْلَجٌ
 رَفِيقُ الْخَوَاشِي ذُو غُرُوبٍ مُؤَشِّرٌ ^(١)
 تَرَاهُ إِذَا تَفَرَّدَ عَنْهُ ، كَأَنَّهُ
 حَصَى بَرَدٍ أَوْ أَقْحَوَانَ مُنَوَّرٌ ^(٢)
 وَتَرَفُو بِعَيْنَيْهَا إِلَيَّ ، كَمَا رَنَا
 إِلَى رَبِّهِ وَسَطَّ الْحِمْلَةُ جُؤَذِرٌ ^(٣)
 فَلَمَّا تَقَضَّى اللَّيْلُ إِلَّا أَقْلَهُ
 وَكَادَتْ قَوَالِي نَجْمُهُ تَتَغَوَّرُ ^(٤)
 أَشَارَتْ بِأَنَّ الْحَيَّ قَدْ حَانَ مِنْهُمْ
 هَيُوبٌ ، وَلَكِنْ مَوْعِدٌ لَكَ «عَزُورٌ» ^(٥)
 فَا رَاعِنِي إِلَّا مَنَادٍ : «تَرَحَّلُوا»
 وَقَدْ لَاحَ مَفْتُوقٌ مِنَ الصَّبَحِ أَشْقَرُ ^(٦)

(١) يَجْ ذكي المسك ، أي يفلج بالرائحة الطيبة . مفلج : أي تفر
 متباعد الأستان ، وكانت العرب تعد هذا من جمال المرأة . ذو غروب :
 أي يمتلئ بالرحيق والرضاب . مؤشر : أي أسنانه محررة خلقة أو صنعة .

(٢) تفر عنه : تيبس .

(٣) الربوب : القطيع من نمر الوحش . الجؤذر : ولد البقرة الوحشية
 كانت العرب تشبه النساء به لجمال عينييه .

(٤) قوالي نجمه : أي نجومه التبقية . تتغور : تغييب .

(٥) عزور : اسم جبل بين مكة والمدينة .

(٦) مفتوق : أي مفتق ، والقصود نور الصباح .

فلما رأت من قد تنبئه منهم
وأيقاظهم ، قالت : أشرُ كيف تأمرُ !
فقلت : أباديهم ، فلما أفوئهم
ولما ينال السيف ثاراً فيثأرُ (١)

تدبير الخلدس .

فقلت : أتحيقاً لما قال كاشحُ
علينا ، وتصديقاً لما كان 'يؤثرُ' ؟ (٢)
فإن كان ما لا بدّ منه ، فغيره
من الأمر أدنى للخفاء وأسرُ
أقصُ على أخوتي بدءَ حديثنا
وما لي من أن نعلما متأخرُ
لعلها أن نطلبها لك مخرجاً
وأن ترحباً صدرأ بما كنتُ أحصرُ (٣)
فقامت كئيباً ليس في وجهها دمُ
من الحزن 'قذري' عبرةً تتعدّرُ (٤)

(١) أباديهم : أبادر وأتصدى لهم .

(٢) الكاشح : العدو المبغض . يؤر : يروي ويقال .

(٣) أحصر : أضيق به .

(٤) قذري عبرة : نكبت دمعاً .

فقامت إليها 'حرثان' عليها
 كساءان من خز^(١) : دمعس^(٢) وأخضر^(٣)
 فقالت لأختيها : « أعيينا على فتى^(٤)
 أتى زائراً ، والأمر^(٥) للأمر يقدر ،
 فاقبلنا ، فارتاعنا ، ثم قالتا :
 أقلتي عليكِ اللوم^(٦) ، فالخطب^(٧) أيسر
 فقالت لما الصفري : سأعطيه مطرفي^(٨)
 ودرعي وهذا البرد^(٩) إن كان يحذر^(١٠)
 يقوم فيمشي بيننا 'متنكراً'
 فلا سرّاً يفشو ولا هو يظهر
 فكان يجتني دون^(١١) من كنت أتقي
 ثلاث شخوص : كاعبان^(١٢) ومُعصر^(١٣)
 فلما أجزنا ساحة الحي قلن لي :
 ألم تقتق^(١٤) الأعداء والليل^(١٥) مقرر^(١٦) ؟

(١) المطرف : وداء من خز . الدرع : قميص المرأة . السبرد : ثوب غلط .

(٢) مجني : ترسي . الكاعبان : مشى الكاعب ، رمي الفتاة في أول البلوغ . المعصر : المرأة الناضجة .

وقلن : أهذا دأبك الدمر سادراً
أما تستحي أم ترعوي أم تفكر؟ (١)
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا
لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر (٢)

التفاتة وتذكر :

فآخر عهد لي بها حين أعرضت
ولاح لها خد نقي ومحجر
سوى أنني قد قلت يا نعم ، قوله
لها ، والعناق الأرحبيات تزجر (٣)
هنيئاً لأهل العامرية نشرها الـ
لذيذ وريتها التي أتذكر (٤)

-
- (١) دأبك : عادتك . سادراً : منصرفاً إلى الغواية غير مبال .
(٢) امنح طرف عينيك غيرنا : أي انظر إلى سوانا وغيرنا .
(٣) المتناق الأرحبيات : النبايق الكريمة . تزجر : تساق وتدفع .
(٤) اللشر : ربح فم المرأة . الريتا : الرائحة الذكية .

[المؤسسة]

المجنون ليلى (قيس بن الملوّح)

لا يُذكر الحبُّ في شعرنا العربي القديم إلا ويذكر معه
مجنون ليلى ؛ هذا الاسمُ الأسطوري ، الذي صار علماً على نوع
من الحب هو الحب العذري . وصار مثلاً للعشق الصادق الذي
صرع صاحبه ، وكان بذلك موضع أحاديث معاصريه ومن جاء
بعدهم حتى يومنا هذا .

ويتفق المؤرخون جيماً على أن المجنون عاش في عصر
الدولة الأموية ، واستمرت حياته حتى عام سبعين من الهجرة ،
وأن اسمه الكامل هو قيس بن الملوّح من بني عامر بن صعصعة ،
وأن ليلى التي أحبها وهام بها وقضى بسبب حبها هي ليلى بنت
مهدي بن سعد بن كعب بن ربيعة .. وأن كليهما نشأ في بيت
ذي ثراء وافر وخير كثير ..

— ولكن ما هي — أولاً — حكاية هذا الحب العذري ؟
في رحاب الصحراء العربية وتحت خيامها ، وفي ظلال

كشبانها ومنعطفات أوديتها ، غمنا وترعرع حب الفروسية
الأصيل .. ولقد كانت البيئة العربية مهداً لحب الفروسية
منذ الجاهلية ، فالبادية أيقظت في وجدان الشاعر العربي
الحديث عن الحب الذي ينشر على الحياة الرتيبة فيها جواً من
المرح والسرور وهو حب أهل البادية الذي يملأ عليهم فراغ
الحياة من حولهم ويبعث فيهم من نبث الشعور ما به يعيشون
على ذكرى هذه العاطفة في النفس ، ويبكون آثارها في أطلال
ديار الحبيب .

وحياة البادية بما كانت تدفع إليه من شطف وجهه ، وبما
كانت تستلزمه من تعاون قبلي ، ساعدت على تكوين أخلاق
وتقاليد تمكنت من روح العربي وسرت في نفسه وهي أخلاق
الفروسية وتقاليدها : من البطولة في الحرب ، وحماية الجار ،
والوفاء بالعهد .

فالشاعر العربي منذ الجاهلية فارس من قوم فرسان ،
والفارس يكتمل فيه جانب البأس والشدة في مواطن الهول
يجانب الرقة والدماء خضوعاً لسلطان العاطفة - ولهذا ،
كان الشاعر العربي لا يبكي في شعره أمام أخطر الأهوال ،
ويتعاضد أن يمر بباله هذا البكاء خوفاً من أن تضيق مكانته في
قومه ، ولكنه يبكي في 'يسر' وطواعية لإرضاء لعاطفته
واستجابة لها ، بل إنه يظهر أمام حبيبته في صورة الخاضع
الذليل لسلطان حبه ، وإن كان الفارس القوي الذي يحميها
ويخاطر في سبيلها .

ولم يلبث عامل البيئة والقبيلة أن تضافر مع عوامل أخرى كثيرة في خلق نوع جديد من الحب في حياة العربي ، يتجاوز كثيراً حب الفروسية وإن كان يتفق معه في صدق العاطفة ، ألا وهو الحب العذري ، وفيه يمزج صدق العاطفة بصدق العقيدة .

نشأ هذا النوع الجديد من الحب بعد ظهور الإسلام ، واتضحت سماته في عهد الأمويين ، بعد أن تغير الوضع القديم للجزيرة العربية في ذلك العهد ، فانتقلت عاصمة الدولة الجديدة إلى دمشق ، وقوي النشاط السياسي في العراق ، وبعد الحجاز عن المشاركة في شئون الدولة ، وبخاصة بعد فشل ثورة عبد الله ابن الزبير . واتجه شعراء الحجاز اتجاهاين مختلفين : الأول إغراق في اللهو ، في حياة مرحلة غنية ، بما أفاء عليهم الإسلام من مغنم الفتوح ، وخير من يمثل هذا الاتجاه عمر بن أبي ربيعة وأضرابه ، وأكثرهم من سكان المدن .

أما الاتجاه الثاني فكان إلى التعبير عن الغزل العف ، ويغلب على سكان بادية الحجاز ، لتمكن التقاليد العربية منهم ، وقوة سلطان المحافظة الخلقية بينهم ، والمحافظة تغلب دائماً على سكان القرى والبوادي - ويضعف سلطانها في المدن والعواصم . لذلك نما الغزل العذري في أول نشأته في بادية الحجاز ونجد ، وكان بمثابة رد فعل للغزل اللامي في المدن ، فوَلع شعراء البادية بتصوير عاطفتهم في ثوب جديد عف ، يرضى

عنه الخلق ، ويرفّق بين مطالب الجسم والروح معاً .

* * *

ها هو ذا قيس بن الملوّح ، في مقتبل شبابه ، الفق
الغيور ، المتمدّ بنفسه ، ينشد حباً خالصاً له ، حتى إذا علق
قلبه بليلى ، وأقاه الحب الذي كان يتطلع إليه ، حباً جارفاً
قوي عارماً ، يصفه هو بقوله :

نهاري نهاري الناسِ ، حتى إذا بدا
ليّ الليلُ هزّتي إليك المضاجعُ
أقضي نهاري بالحديثِ ، وباللّيلِ
ويجمعي والهمّ بالليلِ جامعُ
لقد ثبتتُ في القلبِ منك حبةٌ

كما ثبتت في الراحتين الأصابعُ (١)

ويغلب قيساً شعوره العنيف بحب ليلى ، فيُعير عن حبه
لها وهيامه بها في شعرٍ حلوٍ متدفق ، ولسوء حظه وحظ
ليلى ، أن التقاليد العربية الجاهلية - التي لم يكن قضى عليها
الإسلام - كانت تحرم على من يشبب بفنّاة أن يتزوج منها ،
لأن التشبيب والفزل الصريح مظنة صلة بها قبل الزواج ،
ومبعث ريبة في أن الزواج لم يتم بينها إلا سترّاً للعار .

(١) من الطريف أن هذه الأبيات نفسها ينسبها الرواة إلى مجنون آخر
بالحب هو قيس لبنى ١ ولجدها في قصيدته داخل هذا الكتاب .

وتحرمُ ليلي على قيس وتُجبر على الزواج من غيره ، ولا
يحتمل قيس وقع الكارثة ، فيهم على وجهه ، ويختبل عقله ،
وتدركه المنية وهو على هذه الحال .. شاردأ ذاهل القلب فيما
يشبه الجنون .

* * *

وقيس في شعره عن ليلي - وما أكثره - مؤمنٌ بأنه
ضحية قدر لا سبيل إلى الإفلات منه ، وأنه في معاناته لهذا
الحب العنيف لا يتطلع إلى مشوبة كما أن الحب في إدراكه له
صفة الخلود . فهو باقٍ بعد الموت وإلى يوم الحشر ، ويصاحب
الحب العذري في الدار الآخرة ، ولذا فهو يتعنى الحشر لأنه
السبيل للقائه من يحب .

ومن بين ديوان « مجنون ليلي » تستوقفنا قصيدته المسماة
« المؤنسة » ليس لأنها كما تقول مصادر شعره أشهر قصائده
فحسب ، ولا لأنها أطول قصيدة أنشدها وواظب عليها ولا
لأنها - كما يقولون - كانت أقرب قصائده إلى قلبه ، لا يخلو
بنفسه إلا وأنشدها ، ومن هنا كانت تسميتها بالمؤنسة لكثرة
ما آنست المجنون بترديده لها وإنشاده أبياتها مجتمعة أو
متفرقة ، ليس لكل هذه الأسباب تتخير قصيدة المؤنسة من
ديوان المجنون ، ولكن لأنها نموذج رفيع للشعر العذري ،
الذي عبّر لدى أعلامه الكبار : جميل بثينة وكثير عزة
ونصيب وقيس بن ذريح - الذي يعرف باسم مجنون لبنى -

وابن الدائمة وأبي صخر الهذلي وعروة بن حزام ، عبّر عن عاطفتهم المشبوبة التي لا تتطلع إلى تمتع حسية ، فقد كانوا يسمون بها 'سمواً' تجلى في اعتزازهم بها والتضحية في سبيل الإبقاء عليها بما يستطيعون بذله من جهد وآلام ومعاناة حرمان بدافع الزهد في المحرمات وتقوى الله . لقد دفعهم المحرمات إلى التسامي ، ولا يتاح مثل هذا التسامي إلا للصغرة التي تؤمن بقيم روحية وخلقية تباور بها عاطفتها ، فالحب العذري حبٌ عِفٌّ لأنه حب حرّم المتعة الجسدية ، وهو عاطفة صادقة لأنه يدوم ويستمر ويبقى على الرغم من الحرمان .. ثم هو بعد ذلك حب يتسامى فيه صاحبه ، لأنه يحرص على القيم الإنسانية والمثل العليا ، ولا يقف عند محرّد الحسرة والندم على الحرمان ، من منع الحب ووصال الحبيب .

في ضوء هذه السطور نستطيع أن نتأمل قصيدة المؤنسة ، رائعة مجنون ليلى ، باعتبارها نموذجاً صادق التعبير والتصوير لحقيقة هذا الحب العذري ، ولعمق مكابدة العاشق العذري وتساميه بعاطفته المشبوبة وشعوره الصادق ووجدته المُبْرِج ، كما نستطيع أن نطالع من خلال أبياتها نسيجاً شعرياً محكماً ، غاية في الرقة والمذوبة ، تغمزه روح بدوية أصيلة تكسبه صدقاً ورسانة ، وبُعداً عن التكلف وخُلوعاً من الصنعة ، نسيجاً شعرياً يزخر بصدق العاطفة وروعة التصوير وحرارة الوجد والهيام .. لا يملك قارئه إلا أن يتعاطف معه ويتأثر بما يحمله من لوعةٍ وحنينٍ وشجنٍ وأسى .

استهلال وتذكر :

تذكرتُ ليلي ، والسنين الخواليها
وأيام لا تخشى على اللهو ناهيا
ويوم كظلّ الرمح ، قصّرتُ ظله
بليلى ، فلهباني ، وما كنت ناسيا
« بتمدين ، لاحت نارُ ليلي ، وصُعبني
« بذاتِ الغضى » نزجي المطي « التواجي (١)
فقال بصير القوم ألهمت كوكبا
بدا في سواد الليل فرداً غانيا
فقلت له : بل نار ليلي توقدت
« بعلتيا » ، تسمى ضوءها ، فبدا ليا
فليت ركاب القوم لم تقطع النفسى
وليت « الغضى » ماشى الركاب لباليا
فيا ليل كم من حاجة لي مهمة
إذا جئتكم بالليل لم أدر ما هيا
خليلي إن لا تبكيني الشمس
خليلا إذا أنزفت دمي بكى ليا

(١) قلبي وذات الغضى : اسمان لوضعت . المطي « التواجي » جمع
تاجية ، وهي الذوق السريعة تنجو بن دكها .

فما أشرف الأيفاع إلا صباية*
ولا أنشد الأشعار إلا قداويا^(١)
وقد يجمعُ الله الشيتين بعدما
يظنَّان كل الظنَّ أن لا تلاقيا^(٢)

سورة المائدة :

لحى الله أقواماً يقولون إنما
وجدنا طوالَ الدهر للحبِّ شافيا^(٣)
خليلاً ، لا والله ، لا أملكُ الذي
قضى الله في ليلي ، ولا ما قضى ليا
قضاماً لغيري ، وابتلاني بحبها
فهلأ بشيء غير ليلي ابتلاني
وخبَّرنياني أن تياها ، منزل
لليلى إذا ما السيف ألقى المراسيا^(٤)

(١) الأيفاع : جمع يفع ويفاع ؛ كل ما ارتفع من الأرض (التلال
الشرقية) .

(٢) الشيتان : اللذان ابتعد كل منهما عن صاحبه وتفرق بهما الشمل .

(٣) لحى الله : قبح الله ولمن . طوال الدهر : طول الدهر .

(٤) تياها : اسم موضع .

فهذي شهور الصيف عنتا قد انقضت
 فما للنوى ترمي بليلى المراميا (١)
 فيا ربّ سرّ الحب بيني وبينها
 يكون كفافاً لا عليّ ولا ليا
 فما طلع النجم الذي يتهدى به
 ولا الصبح إلا هيجا ذكرها ليا
 ولا سرّت ميلا من دمشق ، ولا بدا
 « سهيل » لأهل الشام إلا بدا ليا (٢)
 ولا « مميت » عندي لها من سمية
 من الناس إلا بلّ دمعى ردائيا
 ولا هبت الريح الجنوب لأرضها
 من الليل إلا بت للريح حانيا
 فإن تمنعوا ليل وتحموا بلادها
 عليّ ، فلن تحموا عليّ القوافيا (٣)

(١) النوى : البعاد .

(٢) سهيل : نجم بيني ، طلوعه على بلاد العرب في أواخر القيظ .

(٣) تحموا بلادها عليّ : تمنعوا بلادها عليّ . فلن تحموا عليّ القوافيا :
 لن تستطيعوا منحي من التغني بها في شعري .

شهادة عند الله :

فأشهدُ عند الله أني أحبها
فهذا لها عندي ، فما عندها لي
قضى الله بالمعروف منها لغيرنا
وبالشوق منّي والقرام قضى لي
وإن الذي أملت يا أم مالك
أشاب فويّدي واستهام قواديا^(١)
أعدّ الليالي ليلة بعد ليلة
وقد عشتُ دهرًا لا أعد الليالي
وأخرج من بين البيوت لعلّي
أحدث عنك النفس بالليل خاليا
أراي إذا صليت يمت نحوها
بوجهي ، وإن كان المصلي ورائي
وما بي إشراك ولكن حبها
وعظّم الجوى ، أعيى الطبيب مداويا^(٢)

(١) أم مالك : كنية « ليلي » . فويدي : الفريد تصغير الفود وهو معظم شعر الرأس .

(٢) عظم الجوى : شدة الوجد والهام .

أعلى درجات الحب :

أحب من الأسماء ما وافق اسمها
أو شبهه ، أو كان منه مدانياً^(١)
خليليّ « ليلي » أكبر « الحاج » والمنى
فمن لي بليلى ، أو فمن ذا لها بيا^(٢)
لعمري لقد أبكيتني يا حمامة الـ
حقيق وأبكيت العيون البواكيا^(٣)
خليليّ ما أرجو من العيش ، بعدما
أرى حاجتي تشرى ولا تشرى ليا^(٤)
وتُجرم ليلى ثم تزعم أننى
سلوت ، ولا يخفى على الناس ما بيا
فلم أرَ مثلينا خليلى صباية
أشدّ على رغم الأعادي تصافيا
خليلان لا نرجو اللقاء ، ولا نرى
خليلين إلاّ يرجوان التلاقيا

(١) مدانيا : متقارباً ومشابهاً .

(٢) الحاج : جمع حاجة ، أي المأرب والغايات .

(٣) الحقيق : اسم موضع .

(٤) تشرى : تبسّع . أرى حاجتي : أي مأربي من الحياة وهو

« ليلي » .

وإني لأستحييك أن تعرض المنى
 بوصليك أو أن تعرضني في المنى ليا
 يقول أناس على مجنون عامر
 يريد سلوا ، قلت أنتي لما بيا (١)
 إذا ما استطال الدهر يا أم مالك
 فشان المنايا القاضيات وشانيا (٢)
 إذا اكحلت عيني بيمينك لم تول
 بخير وجلت غمرة عن فؤاديا (٣)
 فأنت التي إن شئت أشقيت عيشي
 وأنت التي إن شئت أشقيت باليا
 وأنت التي ما من صديق ولا عدا
 يرى نضوا ما أبقيت إلا رثى ليا (٤)
 أمضوبة ليلي على أن أزورها
 ومتخذ ذنبا لها أن ترانيا

-
- (١) أنسى : أي كيف السبيل إلى ذلك ؛
 (٢) وشانيا : وشائي ، سببت الحمزة لضرورة اللغاية .
 (٣) جلّت غمرة : أزاحت لها وأسى .
 (٤) النضو : الإنسان المهزول والثوب البالي الممزق [يقصد بالنضو
 نفسه المعلقة المزقة] .

إذا سرتُ في الأرض القضاء وأيتني
 أصانعُ رحلي أن يميل خيالها (١)
 يميناً إذا كانت يميناً ، وإن تكن
 شمالاً ينافعني الهوى عن شمالها
 وإنني لأستغشي وما بي نعمة
 لعل خيالاً منك يلقي خيالها (٢)
 هي السحر إلا أن للسحر رقية
 وإنني لا أُلقي لها الدهر راقيا (٣)
 إذا نحنُ أدجننا وأنتِ أماننا
 كَفَى لمطايانا بذكراكِ هاديا (٤)
 ذكَّتْ نار شوقي في فؤادي فأصبحت
 لها وهجٌ مستضرمٌ في فؤادها (٥)

-
- (١) الرجل : الركاب . أصانع رحلي : أجمل السائرين ممي يتجهون
 الى حيث ليل .
 (٢) استغشى : استحضر النوم . نعمة : ناعس ورغبة شديدة في النوم .
 (٣) رقية : خرز ورقاية أو ما يستعان به على السحر من قوى غيبية
 متومة . لا أُلقي : لا أجيد . لا أُلقي لها الدهر راقيا : أي لا أجيد
 لنفسي شفاءً من حبها .
 (٤) أدجننا : سرقنا في الليل المظلم .
 (٥) ذكَّت : اشتعلت .

ألا أيها الركبُ اليانون عرجوا
 علينا فقد أمسى هوانا يمانيا (١)
 أسألكم هل سال و نعمان ، بعدنا
 وحُبّ إلينا بطنُ نعمان واديا (٢)
 ألا يا حمي بطنِ نعمان ، هجتا
 عليّ الهوى لنا تغنيتما ليا
 وأبكيتاني وسط صحي ، ولم أكن
 أبالي دموع العين لو كنتُ خاليا
 ويا أيها القمرِيتانِ تجاوزَيَا
 بلعنيتكما ثم اسجعا علانيا (٣)
 فإن أنتم استطربتما ، أو أردتما
 لحاقاً بأطلال الغضى ، فاتبعانيا (٤)
 ألا ليت شعري ما لليلي وما ليا
 وما للصبا بعد شيب علانيا

-
- (١) الركب اليانون : التجهون وجهة اليمن ، أي الجنوب .
 (٢) نعمان : اسم موضع .
 (٣) القمرِيتان : الحمامتان الممرّتان . اسجعا : غرّدا . علانيا :
 أشقياني من وجدي وحي المبرح .
 (٤) أطلال الغضى : أي الآثار المتبقية من المكان الذي كان يضمه
 ويحيط به ليلي ، والذي شهد ذكرياتها معاً .

ألا أيها الواثمي بليلى ، ألا ترى
إلى من تشبها أو بمن جئت واشبها
لئن ظعن الأحباب يا أم مالك
فما ظعن الحب الذي في قواديا (١)

نداء إلى ليلي :

مُعَذِّبِي ، لولاك ما كنت هائماً
أبِيتُ سَخِينِ الْعَيْنِ حِرَّانَ بَاكِيا (٢)
مُعَذِّبِي ، قد طال وجدي وشفثي
هواك ، فيا للناس قل عزائباً (٣)
وقائلة وارحمتنا لشبابه
فقلت : أجل ، وارحمتنا لشبابها
وددت على طيب الحياة لو أنه
يزاد ليلى عمرها من حياتها
ألا يا حمامات العراق أعنتني
على شجني ، وابكين مثل بكائنا

(١) ظعن : رحل .

(٢) سخين العين : عينه تبكي بشدة وحرقه . حِرَّان : حزان .

(٣) شفثي : أضناني وأسقمي .

يقولون ليلى بالمراقِ مريضة
فيا ليتني كنت الطبيبَ المداويا
تمرُّ الليالي والشهور ، ولا أرى
غرامي لها يزداد إلا تماديا (١)

دعاء أخير :

فيا ربَّ إذ صيرتَ ليلى هي المُنَى
فرزني بيمينها كما زنتها ليا (٢)
وإلا فبغضها إليَّ وأهلها
فإني بليلى قد لقيت الدواهي (٣)
على مثلِ ليلى يقتلُ المرء نفسه
وإن كنتُ من ليلى على اليأس طاويا (٤)
خليليَّ إن ضننوا بليلى ، فقرِّبا
ليَّ النعشَ والأكفان ، واستغفرا ليا (٥) .

-
- (١) تمادياً : بلوغاً إلى مداه وإمعاناً في الأمر . ويرى : غرامي بها بدلاً من غرامي لها .
(٢) فرزني بيمينها : جعلني بيمينها .
(٣) الدواهي : المصائب المهلكة .
(٤) طاوياً : أي خفياً أمرى وحقيقة ما أكابده في نفسي .
(٥) ضننوا بليلى : متموها عليَّ وحرمونني منها . قرِّبا لي النعش والأكفان : هيئوها وجيزها .

(بشينة)

لجميل بن معمر

وإني لأرضى من بشينة بالذي
لو أبصره' الواشي لقرت' بلائله
بلا ، وبألا' أستطيع ، وبالحق
وبالأمل المرجو' قد خاب آمله
وبالنظرة المعجلى ، وبالحول' تنقضي
أواخره ، لا فلتقي ، وأوائله
كانت هذه أول أبيات أستمع إليها من شعر جميل ،
وساعتها تمنيت لو أن بين يدي ديوان شعره كله ، أطالعه
وأقأمله ، وأتوقف مع قصة هذا الفتى المذري - نسبة إلى
قبيلة عذرة - الذي أصبح علماً على هذا اللون من الحب المفع،
يسمو بحرمانه وعفته وشفافيته ، ويرتفع عن شهوات النفس
ومطالب الجسد ، يمتلىء الوجدان بالمعنى الروحي ..

في شعر جميل بثينة ، نتعرف على أرقى نماذج الحب المذري
وأصفاها وأصدقها وتراً وأشدّها حرارة . هو شعر يتلى
بشكاي النفس وما يلاقيه المحب المقيم من تبايرح الوجد ،
وقسوة البعد ، ومرارة الحرمان . ولكنه مع ذلك ، صادق
اللوعة ، عف الضمير واللسان ، رصين التعبير ، غني القلب
موفور الحس والشعور . ثم هو دائماً شاعر عاشق يرضى من
محبوبته بالقليل ، بل بالأقل من القليل :

أيا ربح الشمال ، أما تريني
أهيم ، وأنني بأدي النحول
هي لي نسمة من ربح بثن
ومنتى بالهبوب على جميل
وقولي : يا بثينة حسب نفسي
قليلك ، أو أقل من القليل

وهو شاعر دائم الحديث عن بخل حبيبته ، لكنه حديث
الراضي المستسلم ، لا يسخط ولا يفضب ولا يتمرد ، لا يهدد
ولا يتوعد ولا يشور ، وإنما هو 'مكتفٍ بمجرد الإشارة إلى
بخل بثينة بكل ما من شأنه أن يملأ حياته نعيماً وبهجة ، بخلها
بالوصال ، باللقاء ، بري الصدي المتعطش :

ألا إنها ليست تجود لذي الهوى
بل البخل منها شيمة ، والخلائق

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا
سوى أن يقولوا إنني لك عاشق
نعم ، صدق الواشون ، أنت كريمة
عليّ ، وإن لم تصف منك الخلائق
وأقصى شكواه أن يقول :
لقد خفت أن يفتالي الموت عنوة
وفي النفس حاجات إليك كما هيا
ولاني لتثني الحفيظة ، كلما
لقيتك يوما ، أن أبشك ما بيا
ألم تعلمي يا عذبة الريق أنني
أظلم ، إذا لم ألقى ريقك ، صاديا

ويحدثنا التاريخ أن جميل بن عبد الله بن معمر العذري قد
سبب فؤاده بشينة بنت حسان بن 'جنّ بن ربيعة العذري ،
فالشاعر وحبيبته ينتميان إلى شجرة واحدة في النسب ،
ويقعان معاً في مكان واحد هو وادي القرى - وهو موضع في
الحجاز قريب من المدينة .

وكما حدث لقيس بن الملوّح وليلاه بعد أن ذاعت قصة

حبها وتناقلت أخبارها الركبان ، فحرمتم عليه وزوجت
من غيره ، حدث جميل وبثينة ، بعد أن ذاع شعره فيها
وهيامه بها ، وتحدث بها الناس في القبيلة وخارج القبيلة ، حتى
إذا جاء جميل إلى أبيها خاطباً رفضه أبوها خشية أن يقال إنه
زوجها منه سكراناً لعارها ..

وتزوج بثينة إلى فتى من عذرة : هو نبيه بن الأسود ،
لكن زواجها لا يمنع جميل عنها ، فهو يزورها خفية في بيت
زوجها ، ويقول فيها القصيدة بعد القصيدة ، وتساعده هي
وتدبر له الأمر حيناً ثم تصد عنه أحياناً ، وهو في الحالين
مستطار اللب ، طائر العقل ، مسلوب القلب .

وتتضي الأيام ، ويدب اليأس في قلب جميل ، فيهاجر إلى
مصر ، ويمرض فيها مرضه الأخير .. حتى إذا حضرته الوفاة
كانت آخر كلماته من أجل بثينة حباً ، وتذكراً وتعلقاً
ووفاء ، حتى الرمق الأخير .. ويموت جميل سنة اثنتين وثلاثين
من الهجرة ، ويبقى من بعده صوته الشعري المتوهج بالحرارة
والصدق ، ينطق بعذريته وعفته وصادق حبه ومكابدته :

أرى كلَّ معشوقين غيري وغيرها
يلذات في الدنيا ويغتبطان
وأمشي وتشي في البلاد كأننا
أسيران للأعداء مرتهنان

ضمنت لها ألا أهم بغيرها
وقد وثقت مني بغير ضمان

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن لجليل هي أشهر قصائده ،
وأطولها ، وأكثرها تعبيراً عن فطرته العاشقة ، وأسلوب
الشعري ، الذي يتفق في الكثير من جوانبه مع الطابع العام
لشعر العذريين ، أمثال قيس بن الملوّح (مجنون ليلى) وكثير
عزة وقيس لبنى وعروة بن حزام وأبي صخر الهذلي وغيرهم ..
ويظل هذا الغزل العذري على لسان جميل وأضرابه عميق
التأثير في النفس ، شديد الإثارة للعاطفة ، وهو غزل لا يتوقف
عند مجرد التشبيب بحاسن المرأة ومفاتنها - على عادة الشعر
العربي القديم - وإنما هو يتجاوز ذلك إلى الامتلاء الروحي
بنفس الشاعر ومشاعرها وآلامها وآمالها ، والتميز عن طبيعة
العلاقة العفّة الصادقة الحب التي تربطه بحبيبته التي وقفت عليها
قلبه دون سائر النساء ، وصارت وحدها ملهته ومحور نجاواه
وفدائاته ..

يقول جليل بن معمر :

ألا ليت ريعان الشباب جديدٌ
ودهرٌ آتٍ - يا بشين - يعود^(١)

(١) ريعان الشباب : أوله وأفضله ونضارته .

فنبقى حكاما نكون ، وأنتمو
قريب ، وإذا ما تبذلين زهيد
وما أنسى م الأشياء لا أنسى قولها
وقد قرأت نضوي : أمصر تريد ؟ (١)
ولا قولها : لولا العيون التي ترى
لوزتك ، فاعذربي ، فدتك جدود
خليلي ، ما ألقى من الوجد باطن
ودمعي - بما أخفي الغداة - شهيد
ألا قد أرى ، والله ، أن رُبَّ عبدة
إذا الدار شطت بيننا سقريد (٢)
إذا قلت : ما بي يا بثينة قاتلي
من الحب ، قالت : ثابت ويزيد
وإن قلت : ردّي بعض عقلي أعش به !
فولت وقالت : ذاك منك بعيد
فلا أنا مردود بما جئت طالبا
ولا حبها فيما يبيد يبيد (٣)

(١) نضوي : النضر : الخزيل ، والقصود به هنا : ناقق الخزيلة
م الأشياء : من الأشياء .
(٢) عبدة : دمة ، شطت : عمدت وتناعت .
(٣) يبيد : يفنى ويذول .

جزتك الجوازي يا بشين سلامة
 إذا ما خليل بان وهو حميد (١)
 وقلت لها : بيني وبينك فاعلمي
 من الله ميثاق له وعهود
 وقد كان حُبِّيكم طريفاً وثالداً
 وما الحب إلا طارف وتليد (٢)
 وإن أعروض الوصل بيني وبينها
 وإن سهّلته بالمتى لكؤود (٣)
 وأفنت عمري بانتظاري وعدما
 وأبليت فيها الدهر وهو جديد
 ويحسب نسوان من الجهل أنني
 إذا جئت إياهن كنت أريد
 فأقسم طرقي بينهن فيستوي
 وفي الصدر بون بينهن بعيد (٤)

-
- (١) الجوازي : جمع جازية ، وهي الكفالة . بان : رحل .
 (٢) طارف وتليد : حديث وقديم .
 (٣) الأعروض : الطريق الوعر في عرض الجبل يكتنفه مضيق ،
 والمقصود به هنا : واقع الحال بينه وبين حبيته في الوصال واللقاء .
 كؤود : الشاق ، الصعب .
 (٤) أقسم طرقي : أوزع النظر .

ألا ليت شعري هل أبين ليلة
 بوادي القرى ، إني إذن لسعيد (١)
 وهل أهبطن أرضاً تظل رياحها
 لها بالثنايا القاويات وثيد (٢)
 وهل ألقين « سعدى » من الدهر مرة
 وما رث (٣) من جبل الصفاء جديد (٤)
 وقد تلتقي الأشتات بعد تفرق
 وقد تدرك الحاجات وهي بعيد (٥)
 إذا جئتها يوماً من الدهر ، زائراً
 تعرض منقوض اليدين صدود (٥)
 بصدء ويغضي عن هواي ويحتفي
 ذنباً عليهم _____ ، إنه لعنود

-
- (١) وادي القرى : اسم موضع قرب المدينة ، كان يقيم فيه قوم
 جميل وبشيرة .
 (٢) الثنايا القاويات : الطوق الخالية . وثيد : صوت عال شديد .
 (٣) رث : قدم وبلي .
 (٤) الأشتات : جمع شتيت ، أي المتفرق والمتباعد .
 (٥) المنقوض : من أصابته رعدة الحمى . والردة هنا بسبب الغضب
 والغيرة ، والمقصود به زرع بثينة .

فأصرمها خوفاً ، كأنني بجانب
 ويغفل عنا مرةً ، فنعود^(١)
 ومن يُعْطَ في الدنيا قريناً كمثلاً
 فذلك في عيش الحياة رشيد^(٢)
 يموت الهوى مني إذا ما لقيتها
 ويحيى إذا فارقتها فيعود
 يقولون : جاهد يا جيل بغزوة
 وأيَّ جهاد غير من أريد !
 لكلّ حديث عندهن بئشة
 وكل قتل عندهن شهيد
 وأحسن أيامي ، وأبهج عيشتي
 إذا هيج بي يوماً ومن يعود
 تذكرت ليلى فالغواد عيد
 وشطّئت نواها فالزّار بعيد^(٣)

(١) أصرمها : أجانيها وأفطمها . بجانب : مبتعد لا غاية له فيها .

(٢) قريناً : زوجة .

(٣) العميد : العاشق اليتيم الذي هدّاه العشق . شطّئت نواها : بعدت بها المسافات .

علقت الهوى منها وليداً ، فلم يزل
 إلى اليوم ينمي حبها ويزيد^(١)
 فما ذكر الخلان إلا ذكرتها
 ولا البخل إلا قلتُ سوف تجود
 إذا فكرت قالت : قد أدركتُ وده
 وما ضرني بخلي ، فكيف أجود^(٢)
 فلو فكشف الأشياء ، صدف تحتها
 لبنة حب طارف وتليد
 ألم تعلمي يا أم ذي الودع أنسي
 أضاحك ذكراكم وأنتِ صلود^(٣)

(١) علقت الهوى : أصابني الهوى وقلكتني . ينمي : يزيد ويتضاعف .

(٢) قد أدركت رده : قد استحوذت على مودته وحبه رغم بخلها .

(٣) الودع : خورزات بيض تستخرج من البحر تشق كالنواة وتعلق في أعناق الأطفال لدفع الحمى ، والقصود : بأم ذي الودع : شينة . صلود : بخيلة جداً .

لهل ألقين فرداً بشينة لينة
تجود لنا من ودّها ونجود^(١)
ومن كان في حي بشينة يتري
«فبرقاء» ذي ضال، عليّ شهيد^(٢)

(١) فرداً : منفرداً ، بعيداً عن الناس .

(٢) يتري : يشك . برقاء ذي ضال : اسم موضع كان جميل وبشينة
يلتقيان فيه بعيداً عن الرقباء .

[البُنى]

لقيس بن ربيع

يقول عنه ابن فضل الله العمري في كتابه : « مآلك
الأبصار » :

عاشق شفه التبريح ، وواق لم يشفه التصريح ، تيمسه
حُب 'البنى' وهيمه هواها فما أغنى ، أصبته حسنا ومبته
بحيا كالبدن أو أسنى ، جلبت له حزنا طويلا ، وجنت له
من روض حسنها مرعى وبيل ، تزوج بها وهو بها كليف ،
وبحبها شغف ، ثم أدمن مجالستها وأدمن مؤانستها ، وولع
بتأمل محاسنها ، وتنقل نظره في رؤية أحاسنها ، حتى طبع
هواها على قلبه ، وطلع أنينه بما قطع من خلبه ، وألف لأجلها
ظل الحياء لا يفارقه ، وأنكر فضل الحياء كأنه ما دبّت
بجده شقائقه .

فمزّ هذا على أبيه ، وطالبه بطلاقها فأبى ، وأبى أبوه إلا
أن يذيقه مرارة فراقها على صبي . ثم لما رأى إصراره على

حب لبني واستمراره على حاله المفتي ، أصغر أبوه وآلى ألا
يستظل ببیت حتى يلقي حبها على غاربها ، ويلعق خطاها
ببيت أقاربها ، وكان أوان حرّ تلفح هواجره وينفح بالسموم
ناجره .

فأقبل كهول الحي على قيس يلومونه على حقوق أبيه ،
ويخوفونه عقوق أمه في امرأة تصيبه ، ثم ما برحوا به حتى
طلقها . لما انطلقت إلا هي ولبّه ، وفارقها فما فارقت إلا
ومعها قلبه . ووجد بها رجداً أفلق مضاجعه ، وقلقل في
المآقي مدامعه ، وزوجه أبوه بامرأة غيرها ليسلو لبني ويخلو
مما أياماً ينسى بها لياليه الحسنى ، فما وقعت الثانية منه
موقعاً ، ولا وجدت في قلبه موضعاً ، فبيّت فراقها ، وبّت
طلاقها .

ثمّ الناس في قيس على قسمين : فمنهم من زعم أنه ردها ،
ونعم بها ليل التمام يفتش بردها ، ومنهم - وهم الجمهور -
على أنه بقي بخباله ، صريع هوّى ما أفاق ، وقريع جوّى
منّي من أحبابه بالفراق . . .

* * *

هذه هي القصة ، قصة قيس ولبنى كما جاءت في كتب
التراث العربي القديم ..

وقيس هذا هو قيس بن ذريح بن الحباب بن منة ..

ينتهي نسبه إلى خزيمه من عرب الشمال .. ويقولون إنه من
أعراب الحجاز، وإن قوم قيس كانوا ينزلون في ظاهر المدينة،
أما هو وأبوه فكانا من حاضرتها .. ويبدو أنه كان كثير
التنقل بين بوادي المدينة حيث يقيم أهله وبوادي مكة حيث
يقيم أهل أمه من خزاعة .

أما لبني هذه التي تغنى بها قيس ، وصار منسوباً إليها ،
فهي لبني بنت الحباب أم معمر ، من بني كعب من خزاعة ،
يصفونها بأنها كانت مديدة القامة ، يخالط سواد عينيها زرقة ،
حلوة المنظر والكلام ، وقالوا أيضاً إنها كانت بهية الطلعة ،
عذبة الكلام ، سهلة المنطق . وتبدأ القصة على هذه الصورة :
في إحدى زورات قيس لأخواله ، اشتد الحر فشمر
بالظما ، فوقف على خيمة والرجال غائبون ، فطلب ماء ،
فبرزت له لبني فسقته وأعجب بها ، وطلبت إليه أن يستريح
عندهم حتى تخف وطأة القيظ ، فلباها وتحادها ، فملكت عليه
فؤاده ، وملك عليها فؤادها ، وقدم أبوها فرحّب به ونحرّ له ،
واحتفى ، وأكرمه . وانصرف قيس وقد غلبه الهوى ،
فأنطقه شمرأ رواء الرواة ، وشاع في المجالس .

ويتزوج قيس من لبني ، ويجمع شمل الحبيبين ، ويقمان
أمدأ في ظل سعادة وارفة ، وهناك متصل ..

لكن قيساً - وحيد والديه الثريين - ينسبه حبه للبني
وزواجه منها كل شيء آخر في حياته .. فتغضب أمه لما ترى

من اغتصاب امرأة أخرى له ، فتكيد لزوجته ، وتفتن في الإيقاع بينها .. خاصة وأن لبني لم تنجب من قيس . ويستمر الحال هكذا عشر سنوات .

ثم يجتمع عليه أبوه وقومه ناصحين له بالزواج من إحدى بنات عمه ، لعل الله أن يهب له ولداً يرت ثروة الأسرة من بعده .. ولا يستجيب لهم قيس ، فيجيئه القوم ثانية من كل ناحية ، ويعظمون عليه الأمر ، إذ كيف يفعل مسداً بأبيه وأمه ؟ ولئن مات أبوه على هذه الحال فهو 'معين' وشريك في قتله .

ويصطرع في نفس قيس يرثه بوالديه وحب لزوجته ، ولا تحمل نفسه هذا الموقف الصعب ، وأخيراً ينهار في لحظة ضعف فيرضخ لطلب أبويه وإلحاح قومه ، ويطلق لبني .

ثم لا يلبث قيس أن يستشعر وقع القبيحة ، فجيئته في حبه ، ويحس بالفراغ الذي خلفته لبني في حياته ، واللوعة التي ملكت كل جوارحه ، فينطلق لسانه بالأشعار الباكية .

* * *

نحن إذن أمام واحدة من قصص الحب العذري ، بطلاها عاشا في مستهل القرن الأول الهجري - فالروايات تذكر لنا أن قيساً ولد بين عامي أربعة وستة للهجرة - واختلطت قصتها - بما تتلى به من حكايا وأشعار - ببقية قصص هذا الحب ، خاصة بقصة قيس بن الملوّح وليلاء - المعروف باسم

مجنون ليلي - وأصبح الناس ينسبون شعر هذا إلى ذاك ،
ما دام كله شعراً. عندي ، واضح الخصائص والسمات ، بل
وينسبون القطعة الواحدة إلى شعراء متعددين .. لهذا فنحن
نجد في ديوان قيس لبنى أربعاً وعشرين مقطوعة يتنازعها مع
مجنون ليلي ، فضلاً عن قصائد أخرى يتنازعها مع جيل بثينة
وابن الدؤمنة وكثير عزّة وعروة بن حزام ..

وفي شعر قيس بن ذريح ما نجده في شعر العنبريين من رقة
وجزالة ، وعاطفة صادقة مشبوبة .. وقصير جميل أسر .
يقول عنه القدماء : « ونظمه في الذروة العليا رقة وحلاوة
وجزالة » . وأطول قصائده وأشهرها هي قصيدته العينية ،
التي نطالع فيها صورة صادقة لحبه العميق للبنى ، متضمنة
ندمه ولوعته بعد طلاقها منه وفراقها له ، ولكن هيهات ينفع
الندم ، إن خلاصه الوحيد في البكاء ، وبث شجونه ولوعة
هيامه ، خلال أبيات يرسلها وقد حملت زفرات من سحر قلبه
وحراة معاناته ..

يقول قيس بن ذريح :

عفا سرف من أهله فسراورع

فجنبنا أريك فالتلاع^(١) الدواقع^(٢)

(١) سرف وسراورع : موضعان بالقرب من مكة . أريك : واد في
بلاد بني مرة . التلاع : جمع تلعة ، وهي مجرى الماء من أعلى الوادي .
الدواقع : التي تدفع وتهبط إلى الوادي .

لعلّ لبّيتني أن يُحَمَّ لقاءها
 ببعض البلاد ، إنَّ ما حُمَّ واقع^(١)
 يَحْزَعُ من الوادي خلا عن أنيسه
 عفا وتخطَّته الميون الخوادم^(٢)
 ولما بدا منها الفراق ، كما بدا
 بظهر الصفا الصلير الشقوق الشوائع^(٣)
 تمنيت أن تلقى لبيناك ، والمنى
 تعاصيك أحيانا ، وحينما تطاوع
 وما من حبيبٍ واطقٍ لحبيبه
 ولا ذي هوىٍ إلا له الدهر فاجع^(٤)
 وطار غراب البين وانثقت العصا
 بينن كما شقَّ الأديم الصوانع^(٥)

-
- (١) حُمَّ : قدور وقفي .
 (٢) الجزع : جانب الوادي ومنعطفه . عفا : درس وزال . الخوادم :
 التي لا قنم .
 (٣) الصفا الصلير : الحجر الصلب الضخم . الشوائع : المقترة
 أو الظاهرة .
 (٤) واطق : شديد الحب .
 (٥) البين : الفراق . انثقت العصا : تفرق الأمر . الأديم : وجه
 الأرض . الصوانع : جمع صانع .

ألا يا غراب البين قد طرت بالذي
 أحاذر من لبني ، فهل أنت واقع ؟
 وإنك لو أبلغتها قبلك : اسلمي
 طوّتْ حزنًا وارفضْ منها المدامع ^(١)
 أتبكي على لبني ، وأنت تركتها
 وكنت كآتٍ غيّه وهو طائع ؟ ^(٢)
 فلا تبكين في إثر شيء ندامة
 إذا زعنته من يدك النوازع
 فليس لإمرءٍ حاول الله جمعَه
 مُشيتٌ ، ولا ما فرّق الله جامع ^(٣)
 طمعت بلبني أنت تريّسع ، وإنما
 تقطع أعناق الرجال المطامع ^(٤)
 كأنك لم تقنع إذا لم تلاقها
 وإن تلحقها فالقلب راضٍ وقانع

(١) قبلك : قولك . ارفض : سال وتلوقت .

(٢) الغي : الضلال والخيبة .

(٣) مُشيت : مفرق .

(٤) تريّسع : ترجع .

فيا قلبُ خبّرني إذا شطّئت النوى
 بلبنى وصدّت عنك ما أنت صانع ^(١)
 أتصبرُ للبينِ المُثبِتِ مع الجوى
 أم أنت امرؤٌ ناسي الحياء فجازع
 لما أنا إن بانت لبيني بهاجع
 إذا ما استقلت بالنيام المضاجع
 وكيف ينام المرء مستشعر الجوى
 ضجيج الأسى فيه نكاسٌ روادع ^(٢)
 فلا خيرَ في الدنيا إذا لم تُواتِنَا
 لبيني ، ولم يجمع لنا الشمل جامع
 أليست لبيني تحت سقفٍ يُكِنها
 وإيتاي ، هذا إن فأت لي نافع ^(٣)
 ويلبسُنَا الليل البهيمُ إذا دجا
 ونبصر ضوء الصبح والفجر ساطع ^(٤)

(١) شطّئت : بعدت .

(٢) النكاس : جمع نكس وهو المرء المعاوذ الذي لا يبرح . الروادع : جمع رادعة وهي التي تردعه (تمنعه) عن الحركة والتصرف .

(٣) يكتنّا : يحميها ويؤويها . السقف : المقصود به هنا هو السماء .

(٤) دجا : أظلم .

تطا تحت رجلها بساطاً وبعضه
أطاه' برجلي ، ليس يطويه مانع^(١)
وأفرح إن أمست بخير وإن يكن
بها الحدث العادي ترعني الروائع^(٢)
كأنك بدع لم تر الناس قبلها
ولم يطلعك الدمر قيمن يطالع
فقد كنت أبكي والنوى مطمئة
بنا وبكم من علم ما البين صانع
وأهجركم مجر البفيض ، وحبكم
على كبدي منه كلوم^(٣) صوادع^(٤)
فواكبدي من شدة الشوق والأسى
وواكبدي إني إلى الله راجع
وأعجل للإشفاق حقي يشفتني
مخافة^(٥) وشك^(٥) البين والشغل جامع^(٥)

(١) تطأ : تطأ (وخلفت الحمزة) .

(٢) الحدث العادي : الخطب الجسيم النازل بها . ترعني : ترعني .
الروائع : المفزعات .

(٣) الكلوم : جمع كلم ، الجرح . الصوادع : المزلزلة المزلقة .

(٤) يشفتني : يطمئني . وشك البين : قرب الفراق .

وأعد للأرض التي من ورائكم
لترجعني يوماً إليك الرواجع
فيا قلب صبراً واعترافاً لما جرى
ويا حبها قم بالذي أنت واقع
لعمري لمن أمسى وأنت ضجيرة
من الناس ما اختيرت عليه المضاجع^(١)
ألا تلك لبني قد تراخى مزارها
وللبين غمّ ما يزال ينزاع
إذا لم يكن إلا الجوى ، فكفى به
جوى حرقٍ قد ضمنتها الأضالع
أبائنة 'لبنى ولم تقطع المدى
بوصلٍ ولا صرمٍ فيبأس طامع^(٢)
يظل نهارُ الواهينَ نهاره
وتهده في النامين المضاجع^(٣)

(١) ضجيرة : زوجته وحليته . لما اختيرت عليه : ما قبلت عليه .

(٢) الصرم : القطيعة والفراق .

(٣) الواهين : جمع واه ، الشديد الحزن والوجد حتى ليكاد يفقد عقله . تهده : تسكنه وتهده .

سواءٌ ، قليلي من نهاري وإلما
 تقسم بين الهالكين المصارع^(١)
 ولولا رجاء القلب أن تسعف التوى
 لما حملته بينهن الأضالع
 له وجباتٌ إثر لبني ، كأنها
 شقائق برقٍ في السحاب لوامع^(٢)
 نهاري نهار الناس حتى إذا دجأ
 ليّ الليل هزّتي إليك المضاجع
 أقضي نهاري بالحديث وبالمنى
 ويجمعني والهَمّ بالليل جامعُ
 لقد ثبتت في القلب منك مودة
 كما ثبتت في الراحتين الأصابع^(٣)
 أبى الله أن يلقى الرشاد مُتَيْمٌ
 ألا كلُّ أمرٍ حمّ لا بدّ واقع^(٤)

-
- (١) سواء : أي سواء عليّ ليلي ونهاري فيها متشابهان في وقعها عليّ .
 (٢) وجبات : خفقات ، شقائق برق : موجات من البرق المتتابع .
 (٣) الراحتان : اليدين . [هذا البيت والبيتان السابقان له ينسبها الرواة إلى مجنون ليل أيضاً] .
 (٤) حمّ : قدّم وزل .

هما برّحا بي مُعولينِ كلامها
 فؤادُ وعينُ جفنها - الدهر - داعم^(١)
 إذا نحن أنقدنا البكاء عشيّة^(٢)
 فمعدنا قرْن من الشمس طالع^(٣)
 وللحب آياتُ تبينُ بالفق
 شعوبٌ وتقرى من يديه الأشاجع^(٤)
 وما كلُّ ما منتك نفسك خاليا
 تلاقيني ، ولا كلُّ الهوى أذت تابع
 تداعت له الأحزانُ من كلِّ وجهة
 فحنُّ كما حنَّ الظُّوار السواجم^(٥)
 وجانب 'قرب' الناس يخلو بهم
 وعارده فيها 'هيام' مراجع

-
- (١) برّحا بي : أتعباني وأجهداني . الدهر : طول الدهور .
 (٢) أنقدناه : أنهيناه ولم نترك منه شيئا . قرْن من الشمس : شروق
 الشمس في صباح اليوم التالي .
 (٣) تبين : تظهر . الأشاجع : أصول الأصابع التي تتصل بالأعصاب
 أو هي عروق ظامر الكف . وتقرى الأشاجع : أي تمزق اليداث
 ويلعب ما عليها من لحم .
 (٤) تداعت : أقبلت وتجمعت . الظُّوار : النياق التي تعطف على ولد
 غيرها . السواجم : التي يمور بها الحنين .

أراك اجتنبت الحي من غير بغضة
ولو شئت لم تجنب إليك الأصابع^(١)
كان بلاد الله ما لم تكن بها
- وإن كان فيها الخلق - قفر^(٢) بلاقع^(٣)
ألا إنما أبكي لما هو واقع
وهل جزع من وشك بينك فافع^(٤) ؟
أحال علي الدهر من كل جانب
ودامت فلم تبرح علي الفجائع^(٥)
فمن كان محزوناً غداً لفراقنا
فيلان فليبك لما هو واقع^(٦)

(١) بغضة : كراهية وعدارة . تجنب : قيل .
(٢) بلاقع : جمع بلقع وهي الأرض الخراب القفر .
(٣) أحال علي : دفع بالمصائب وصرمها الي .
(٤) فلان : فمن الآن .

عزّة..

لكثير عزّة

يزهّدني في حبّ عزّة معشر
قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارضى
فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب
وما تبصر العينان في موضع الهوى
ولا تسمع الأذنان إلا من القلب

* * *

هو كثير بن عبد الرحمن الخزاعي ، شاعر حجازي من شعراء العصر الأموي ، ويكنى أبا صخر ، اشتهر بكثير عزّة نسبة إلى محبوبته عزّة التي قال فيها أكثر شعره في الغزل والتشبيب ، والعزّة في اللغة هي بنت الظبية ، أما عزّة هذه فهي بنت جميل بن حفص وكنيتها أم عمرو وكان يطلق عليها أيضاً الحاجبية نسبة إلى جدها الأعلى .

ويقول لنا رواة الشعر العربي القديم إن كثير عزة أحد عشاق العرب البارزين ، وأنه شاعر أهل الحجاز ، وإنهم يقدمونه على كثير من شعراء أهل زمانه حتى لقد قال بعضهم إنه أشعر أهل الإسلام ...

ثم يقدمون له صورة وصفية طريفة ، فهو قصير شديد القصر ومن هنا كانت تسميته بكثير على سبيل التصغير . يقول الوقاصي : رأيت كثيراً يطوف بالبيت فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فلا تصدقه ، وكان كثير إذا دخل على عبد الملك بن مروان - الخليفة الأموي - يقول له : طأطأ رأسك حتى لا يصيبه السقف ..

ويصرح كثير نفسه بهذا القصر في شعره فيقول :

وإن ألك قصراً في الرجال فإني

إذا حل أمرٌ ساحتني لطويل

ثم يضيفون أنه كثير الاعتداد بنفسه ، كثير المعجب والزهو والخيلاء ، حتى إن الناس كانوا يجيئون من وراءه فيأخذون رداءه فلا يلتفت من الكبير ويمضي في قميص ... وإنه كان يؤمن بالرجعة والتناسخ .

وكان خلفاء بني أمية - وفي مقدمتهم عبد الملك بن مروان - شديدي الإعجاب بشعره ، خاصة مدائحه . يروون أنه قال يوماً لعبد الملك : كيف عرى شعري يا أمير المؤمنين ؟

قال : أراه يسبق السحر ويفلب الشعر ..
وقال له عبد الملك يوماً : من أشعر الناس يا أبا صخر ؟
قال كثير : من يروي أمير المؤمنين شعره .
فقال عبد الملك : إنك لمنهم ..

ويتفنن الرواة في صياغة أخباره وقصصه مع محبوبته عزة ،
وكيف بدأ تعشقه لها ، فيقولون إنه مرّ ذات يوم بنسوة من
بني حمزة ومعه قطيع أغنام ، فأرسلن إليه «عزة» وهي بعد
صغيرة فقالت له : تقول لك النسوة بعنا كبشاً من هذه الغنم ،
وانسئنا بثمنه إلى أن ترجع - أي أمهلنا في دفع ثمنه حتى
تعود - فأعطاهما كثير كبشاً ، ووقعت هي من قلبه موقعاً
عظيماً ، فلما رجع جاءت امرأة منهن بدراهمه فقال لها :
وَأَيْنَ الصبية التي أخذت مني الكبش ؟ قالت : وما تصنع بها؟
هذه دراهمك ، فقال : لا آخذ دراهمي إلا ممن دفعت إليه :
وانصرف وهو ينشد :

قضى كلُّ ذي دينٍ فوفى غريمه
وعزّةٌ ممطولةٌ مُعنى غريمها
فقلن له : أبئت إلا عزّة ! وأبرزنها له وهي كارهة . ثم
إنها أحبته بعد ذلك أشدّ من حبه لها .

ويحلو للقدماء أيضاً أن يقارنوا بينه وبين جميل بن معمر
صاحب بثينة . فيقولون إن كثيراً يتقول ولم يكن عاشقاً أما

جميل فكان صادق الصبابة والعشق ، وإن جميلاً كان يصدق في حبه أما كثير فيكذب في حبه ..

ثم يضيفون أن عدد النساء اللواتي شيعنه عند موته كان أكثر من عدد الرجال ، وكن يبكينه ويذكرن عزته في ندين .. وكانت وفاته في خلافة يزيد بن عبد الملك سنة خمس ومائة من الهجرة ..

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن من شعر كثير هي أطول قصائده على الإطلاق ، وأشهرها ، وأكثرها ذيوماً ، والقديماً يعدونها من منتخباته ، والغريب أن كثيراً يلتزم في ختام أبيات هذه القصيدة حرف اللام قبل حرف الروي وهو التاء ، فجعل لها قافية مزدوجة من اللام والتاء ، فهي إذن صورة متقدمة لشعر اللزوميات الذي عرفناه بعد ذلك عند أبي العلاء المرّسي . وهذه القصيدة - الناطقة بفن كثير الشعري ، وأسلوبه السهل المتنوع في صياغة المعنى الشعري والصورة الشعرية - قصة "طريفة" من الطريف أن نستمع إليها .

روي أن عبد الملك بن مروان سأل كثير عزة عن أعجب خبر له مع عزة فقال : يا أمير المؤمنين حججت ذات سنة وحج زوج عزة معها ولم يعلم أحداً بصاحبه ، فلما كنا ببعض الطريق أمرها زوجها بابتياح سمن تصلح به طعاماً لرفقتة فجعلت تدور بالخيام خيمة خيمة حتى دخلت إلي وهي لا تعلم أنها

خبيثي وكنت أبري سها ، فلما رأيتها جعلت أبري لحي
وأنظر إليها حتى بريت ذراعي وأنا لا أعلم به والدم يجري ،
فلمسا علمت ذلك دخلت إلي فأمسكت يدي وجعلت تمسح
الدم بثوبها ، وكان عندي نجىء سمن (وعاء سمن) فحلفت
لتأخذه فأخذه ، وجاء زوجها فلما رأى الدم سألها عن خبره
فكأتمته حتى حلف عليها لتصدقنه فصدقته فضرها وحلف
عليها لتشتفي في وجهه فوقفت علي وقالت لي وهي تبكي :
يا ابن (....) فأنشدت :

خليلي ، هذا ربع عزة ، فاعقلا
فلوسيكما ، ثم ابكيا حيث حلت^(١)
ومثا ترابا كان قد مس جلدنا
وبيتنا وظلا حيث باتت وظلات
ولا تياسا أن يمحو الله عنكما
ذنوباً إذا صليتما حيث صلت
وما كنت أدري قبل عزة ما البكا
ولا موجعات القلب حتى تولت^(٢)

(١) ربع عزة : موضع دارها . اعقلا : شدا واربطا . فلوسيكما :
القوس النافذة الشابة النشيطة .

(٢) تولت : ذهبت وأدبرت .

وقد حلفت جهداً بما نحررت له
 قريشُ غداة « المأزمينِ » وصلت (١)
 أناديك ما حج الحجيج وكبرت
 « بغيها غزال » رفقة وأهلت (٢)
 وما كبرت من فوق « ركة » رفقة
 ومن « ذي غزال » أشعرت واستهلت (٣)
 وكانت لقطع الحبل بيني وبينها
 كنادرة نذراً ، فأوفت وحلت (٤)
 فقلت لها : يا عزُّ كل مصيبةٍ
 إذا وطئت يوماً لها النفس ذات (٥)

(١) المأزمان : موضع بمكة بين الشعر الحرام وعرفة (بين عرفة والمزدلفة) وهو شرب بين جبلين يفضي آخره إلى بطن عرفة وبه المسجد الذي يجمع فيه الإمام بين صلاتي الظهر والعصر . حلفت جهداً : أي نالقت في اليمين .

(٢) بغيها غزال : أي بغيها غزال ، موضع بمكة حيث ينزل الناس منها إلى الأبطح . أهلت : رفعت صوتها بالتلبية . ما حج الحجيج : أي طيلة مدة حج الحجيج .

(٣) ركة : واد بين مكة والطائف . رفقة : رفاق ، جمع رفيق . أشعرت : جعلت لنفسها شعراً . . وشعار القوم علامتهم في السفر .

(٤) حلت : أوفت بعهدها وخرجت من ميثاق كان عليها .

(٥) وطن نفسه على الشيء : أي جعلها عليه حتى تدل له وتخفض .

ولم يلق إنسان من الحب مبيعة*
تعم* ، ولا عبياء إلا تجلت (١)
تفتيتها حتى إذا ما رأيتها
رأيت المنايا شرعاً قد أظلت (٢)
كأني أنادي صخرة حين أعرضت
من الصم لو تمشي بها العصم زلت (٣)
صلوحة فما تلقاك إلا بخيسة
فمن ملّ منها ذلك الوصل ملت
أباححت حمى* لم يرعه الناس قبلها
وحلت تلاعاً لم تكن قبل حلت (٤)
فليت قلوصي عند عزة قيدت
بحس ضعيف 'حز' منها فضلت

(١) مبيعة الشيء : أوله أو معظمه . تعم : تشمل . العبياء : الضلالة والجهالة . تجلّت : انكشفت وانفجرت .

(٢) المنايا : جمع منية ، الموت . 'شرعاً' : مسددة ، موجهة .

(٣) الصم : الصخور الصلبة المصمتة . العصم : جمع عصماء والأعصم من الظبا والوعول مسا في ذراعيه أو إحداهما بياض وسائره أحر أو أسود . زلت : زالت .

(٤) التلاع : جمع تلمة ، الأرض المرتفعة .

وغودر في الحبي المقيمين رحلها
 وكان لها باغ سواي قبلت ^(١)
 وكنت كذي رجلين : رجل صحيحة
 ورجل رمى فيها الزمان فشلت
 وكنت كذات الظلع لما تحاملت
 على ظلمها بعد العثار استقلت ^(٢)
 أريد الثواء عندها ، وأظنها
 إذا ما أطلنا عندها المكث ملت ^(٣)
 فما أنصفت ، أما النساء فبفضت
 إليّ ، وأما بالنوال فضت ^(٤)
 يكلفها الغيران شمي ، وما بها
 هواني ، ولكن للمليك استذلت ^(٥)

(١) بلت : هامت ضالة* على وجهها .

(٢) كذات الظلع : كالناقة العرجاء . تحاملت : تكلفت المشي بشقة .
 استقلت : ذهبت وارتحلت .

(٣) الثواء : الإقامة . المكث : البقاء .

(٤) النوال : المطاء ، والمقصود به الوصال .

(٥) الغيران : ذو الغبرة ، يقصد به زوج عزة . المليك : أي المالك
 الذي يملك وهو زوج عزة . استذلت : هانت وخضعت .

هنيئاً مريئاً - غير داء مخامر -
لعزة من أعراضنا ما استحلّت (١)
فوالله ما قاربنا إلا تباعدت
بصرم ، ولا أكثرنا إلا أقلت (٢)
وكنا سلكننا في صعود من الهوى
فلما توافقنا : ثبت وزات
وكنا عقدنا عقدة الوصل بيننا
فلما توائمنا : شددت وحلت
فإن تكن العنبي فأهلاً ومرحباً
رحمت لها العنبي لدينا وقلت (٣)
وإن تكن الأخرى ، فإني وراءنا
منادح لو سارت بها العيس كلت (٤)

(١) مخامر : مغالط ومداخل . من أعراضنا ما استحلّت : يقصد
شكيبته في عرضه إطاعة لأمر زوجها .
(٢) صرم : قطيعة ومجران .
(٣) العنبي : الرضى وإزالة اللوم .
(٤) منادح : جمع مندوحة وهي الأرض الراسعة البعيدة . العيس جمع
عيساء وأعيس : الإبل البيض الكريمة يخالفها شفرة أو ظلمة خفيفة .
كلت : تعبت من السير .

خليلي إن الحاجبية طلعت*
 قلو صيكا ، وناقني قد أكلت (١)
 فلا يبعدن وصل لعزة ، أصبحت
 بعاقبة أسبابه قد قوات (٢)
 أسيتي بنا أو أحسنني ، لا ملومة*
 لدينا ، ولا مقلية إن ثقلت (٣)
 ولكن أنبلي ، واذكري من مودة
 لنا خلّة كانت لديكم قطلت (٤)
 فإني وإن صدت لمثني وصادق
 عليها ، بما كانت إلينا أزلت (٥)
 فلا يحسب الواشون أن صبابتي
 بعزة كانت كغمرة فتجلت (٦)

-
- (١) الحاجبية : يقصد بها عزّة. طلعت وأكلت : أتعبت وأجهدت.
 (٢) فلا يبعدن : فلا يهلكن . بعاقبة : في ختام الأمر .
 (٣) مقلية : مبغضة ومكرومة من القلي ، أي البغض . ثقلت :
 تبغضت .
 (٤) الخلّة : المحبة والصداقة . طلت : أي منعت وأهدرت .
 (٥) أزلت : أسدت وأعطت .
 (٦) الواشون : الذين يشنون بالنسيمة ويزينون الكذب . غمرة : شدة .
 تجلت : انفرجت .

فأصبحتُ قد أبليتُ من دَنَفٍ بها
 كما أدنِفتُ هَيْمَاءَ ثم استبليتُ (١)
 فواللهِ ثم الله ما حلَّ قبلها
 ولا بعدها من خَلَةٍ حيث حلت (٢)
 وما مرَّ من يومٍ عليَّ كيومها
 وإن عظمت أيام أخرى وجلت (٣)
 وأضحت بأعلى شائقٍ من فؤاده
 فلا القلب يسلاها ولا العين ملّت (٤)
 فيا عجباً للقلب كيف اعترافه
 وللنفس لما وطنت كيف ذلت (٥)

(١) أبليت : شغيت . الدنف : المرض الملازم . الهيماء : الناقة التي أخذها الهيام وهو داء يصيب الإبل فتظل تيم في الأرض دون أن ترعى حتى تموت . استبليت : برئت وشفيت .

(٢) الخلة : الخلية . أي الحبيبة والصديقة .

(٣) أيام أخرى : أي أيام امرأة أخرى . جلت : عظمت .

(٤) الشائق : المرتفع . يسلاها : يلساها ، ويرى البيت هكذا :

والعين أسرابٌ ، إذا ما ذكرتها

والقلب وسواس إذا العين ملّت

(٥) اعترافه : اضطباره . ذلت : خضعت واستسلمت وأطاعت .

وإلي وتَهَيَّأَني بعزَّة بعدما
 تَخَلَّيْتُ ما بيننا وتَخَلَّتْ (١)
 لكالمُرْجِي ظلَّ الغمامة ، كلما
 تَبَوَّأَ منها للعَـقِيلِ اضمحلَّتْ (٢)
 كَأَنِّي وإِيَّامَا سَحَابَةٍ مُمَحَلِّ
 رَجَاهَا ، فلما جاوزَتْهُ استَهَلَّتْ (٣)
 فإن سألَ الواشونَ فِيمَ هَجَرْتَهَا
 فَقُلْ : نَفْسُ حُرٍّ سَلَّيْتُ فَنَلَّيْتُ (٤)

-
- (١) التَّهَيَّأَ : شَدَّةُ الْهَيَامِ وَالْمَشَقِّ بِمَا يَشَبِّهُ الْجُتُونَ ، تَخَلَّتْ : تَرَكْتُ .
 (٢) تَبَوَّأَ الْمَكَانَ : اتَّخَذَهُ لِلْإِقَامَةِ ، اَضْمَحَلَّتْ الْغَمَامَةُ : انْقَشَعَتْ وَذَهَبَتْ .
 (٣) سَحَابَةٌ مَحَلٌّ : سَحَابَةٌ بِلَدٍ مَحَلٍّ (الْمَحَلُّ : الْجَدْبُ وَالانْقِطَاعُ الْمَطَرُ وَخَلْوُ الْأَرْضِ مِنَ الْكَلَالِ) اسْتَهَلَّتْ : أَمْطَرَتْ وَصَبَّتْ مَاءَهَا .
 (٤) الْحُرُّ : الْكَرِيمُ ذُو الْإِثْقَةِ ، سَلَّيْتُ : أَخَفْتُ تَسْلُوَ أَيِ قَلْبِي .

وأمطرت لؤلؤًا

ليزیدین معاویة

وهذه قصيدة فاتنة ، عنيت بها كتب البلاغة العربية ،
لامتلائها بالصور والتشبيهات والاستعارات التي يتذوقها
الدارسون على أنها نماذج لبلاغة التعبير الأدبي. والقصيدة قدسها
كتب التراث العربي ليزيد بن معاوية بين ما ينسب له من
مقطوعات شعرية أخرى . ولئن صدقت هذه النسبة ، لكننا
إزاء شاعر أصيل مطبوع ، له أسلوبه الشعري المتميز ،
وطرائقه في التعبير ، وعنايته بالصور الطريفة المبتكرة ، تلك
التي هام بها البلاغيون والبدعيون استشهاداً وتحليلاً وتمثيلاً .
ولا نظن أن كتاباً من كتب البلاغة العربية يخلو من هذا
البيت الشعري المأثور ، يستشهد به على قتابع الاستعارات
والصور الشعرية :

وأمطرت لؤلؤاً من نرجسٍ وسقت

ورداً ، وعضت على العنابِ بالبرَدِ

وكثيراً ما تملكيتنا الدهشة والغرابة لهذا الشاعر الذي
افتنّ في وصف حبيبته وهي تبكي وتنتحب ، قصور دموعها
لؤلؤاً ، وعينيها نرجاً رخدياً ورداً ، وشفتيها عُنَاباً ،
وأسنانها برّداً .. وكل هذه الصور المجتمعة قد جاءت في بيت
واحداً ... فتأملوا !

وإذا صح أن الشاعر هو يزيد بن معاوية ، فهو إذن ثاني
خلفاء بني أمية ، تولى الحكم بعد وفاة أبيه معاوية ، وهو الذي
أمر عبد الله بن زياد وإلى الكوفة بمحاربة الحسين وأتباعه
فهزمهم في كربلاء ، وقتل الحسين في المعركة .. وبمقتله
استلب الأمر للأمويين في دمشق ، واستقرت خلافتهم فيها ،
وبدأوا يلتفتون إلى ما أحاط حياتهم من رفاهية ونعيم ، وحياة
رغبة تليق بأهل القصور ..

لهذا نجد في شعر يزيد هذا الجوّ المترف ، وهذه الصور
الطيّعة لمن شب في رفاهية العيش ونعيمه وهنائه ، ورقّة
الطبع التي لا يؤاها إلا من عمرت نفسه ببهاج الحياة ومتعها ،
وأصبح الحب لديه صورة مُنغمة مطرزة ، يفتنّ في إكسابها
شئ الألوان والشمات .. يقول في إحدى قصائده :

خذوا بدمي ذاتَ الوشاح ، فإنني
رأيت بعيني في أناملها دمي
ولا تقتلوها إن ظفرتم بقتلها
بلى ، خبّروها بعد موتي بأنمي

ثم يقول :

ولما تلاقينا ، وجدت بنانها
مخضبة تحكي غصارة عندهم

فقلت : خضبت الكف بعدي ، هكذا
يكون جزاءُ المستهام المقيم !

فقالت وأبدت في الحشا حرق الجوى
مقالة من في القول لم يتبرم

وعيشك ما هذا خضاباً عرفته
فلا تكُ بالبهتان والزور متهمي

ولكنني لما رأيتك نائياً
وقد كنت لي كفي وزندي ومعصي

بكيت دماً يوم النوى ، فمسحته
بكفتي ، وهذا الأثر من ذلك الدم

فهذا عاشق لا يستوقفه إلا الخضاب على أنامل محبوبته ،
فيدير معها هذا الحوار المترف - يذكرونا بما يدور من حوارات
ناعمة بين أهل القصور - ويختتمه بتوضيح سبب هذا الخضاب ،
فقد بكى المحبوبة عليه دماً يوم فراقه ، فلما أرادت مسح
هذا الدم بكفها تخضبت أناملها .. فهي لم تتزين قط بعد
رحيله حزناً عليه ، لكن دماً هو الذي يصبغ أناملها .

والعاشق هنا عاشق أمير ، المحبوبة هي التي تبكي عليه
غداة نأيه وبُعده ، بعد أن كان لها الكفّ والزند والمعصم ،
وهي لا تبكي عليه دموعاً ولكنها تبكي عليه دماً ، من شدة
ما تحمله له من حب ووجد وتبريح ، فانظروا أي نعم وترف
وتدلل !

يبقى أن نلتقي بالقصيدة التي شاعت شهرتها منسوبة إلى
يزيد ، وأن نشبع فضولنا بالتعرف على أبياتها الجميلة ، ذات
العاطفة الرقيقة المترفة ، عاطفة أبناء القصور ، وأصحاب
الترف والنعم ..

يقول يزيد بن معاوية :

ثالت على يديها ما لم تنله يدي
نقشاً على معصم أوهت به جلكدي (١)
كانه 'طرق' نمل في أناملها
أو روضة رصعتها السحب بالبرد (٢)

(١) أوهت به جلكدي : أضمت قدزني على التحمل .

(٢) الأنامل : جمع أنملة : طرف الإصبع أو رأس الإصبع . البرد :
ماء الغمام يتجمد في الهواء البارد ويسقط على الأرض في صورة حبات .

وقوسٌ حاجبها من كل ناحية
 وتبيلٌ مقلتها ترمي به كبدي^(١)
 مدت مواشطها في كفها شركاً
 تصيد قلبي به من داخل الجسد
 أنيسةٌ لو رأتها الشمس ما طلعت
 من بعد رؤيتها يوماً على أحدٍ
 سألتها الوصلَ قالت : لا تُفرُّ بنا
 مَنْ رام منا وصلاً مات بالكدر
 فكم قتيلٍ لنا بالحب مات جوى
 من الغرام ، ولم يُبديء ولم يُعيد
 فقلتُ : أستغفر الرحمن من ذللي
 إنَّ الحب قليل الصبر والجَلَدِ
 قد خلّفتني طريحاً وهي قائلة :
 تأمّثوا كيف فِعْلُ الظبي بالأسدِ^(٢)
 قالت لطيف خيالٍ زارني ومضى :
 بالله صفه ، ولا تنقص ولا تزد

(١) النبيل : السهام .

(٢) الظبي : الغزال .

فقال : خلقتك لو مات من ظمأ
وقلت : قف عن ورود الماء، لم يرد !
قالت : « صدقت ، الوفا في الحب شيمته »
يا برء ذاك الذي قالت على كبدي !^(١)
واسترجعت سألت عني ، فقيل لها :
ما فيه من رمق ، دقت يدا بيد
وأمرت لؤلؤاً من نرجس ، وسقت
ورداً ، وعضت على العناب بالبرء^(٢)
وأنشدت بلسان الحال قائلة
من غير كرم ولا مطل ولا مدد^(٣)
والله ما حزنت أخت لفقد أخ
حزني عليه ، ولا أم على ولد
إن يحسدوني على موتي ، فوا أسفي
حق على الموت لا أخلو من الحسد

(١) شيمته : خلقه وطبيعته .

(٢) العناب : واحدته عنابة ، فاكهة من فصيلة النبقيات ، تشبه حبة الزيتون ، وأجوده الأحمر الحار . والمقصود به شفا الحبيبة . أما البرء فالمقصود به أسنانها الناصمة البيضاء .

(٣) المثل : التسويف والتأخير .

(فؤز)

للعباس بن الأحنف

من أجل ما يروونه عنه أنه خرج مع الرشيد ذات مرة
إلى خراسان ، وكان الرشيد قد وعده أنه لن يغيب عن أهله
في بغداد ، لكن الغياب طال ، فاشتد به الشوق إلى أهله ،
واحتال هو بأبيات تصل إلى سمع الرشيد لعله يأمر له بالعودة:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا
ثمّ القُفُولُ ، فقد جئنا خراسانا
معي يكون الذي أرجو وآمله
أما الذي كنت أخشاه فقد كانا
ما أقدر الله أن يدي - على شَحَطٍ -
جيران دجلة من جيران « جيحانا » (١)

(١) ويرى البيت أيضاً ، سكان دجلة من سكان جيحانا .

يا ليت من نتعنى عند خلوتنا
إذا خلا خلوة يوماً تمناسا
وتصل الأبيات إلى سمع الرشيد ، فيتأثر بها غاية التأثر ،
ويأذن لشاعره العباس بن الأحنف بالعودة إلى بغداد ..

رواية أخرى طريفة حكاها المسعودي في كتابه « مروج
الذهب » عن جماعة من أهل البصرة ، قال :

خرجنا نريد الحج ، فلما كنا ببعض الطريق ، إذا غلام
واقف على المحجة وهو ينادي : أيها الناس ، هل فيكم أحد من
أهل البصرة ؟ قال : فعدلنا إليه ، وقلنا له : ما تريد ؟

قال : إن مولاي لما به يريد أن يوصيكم . فلنا معه ، فإذا
شخصٌ ملقى على بعدٍ تحت شجرة لا يحير جواباً ، فجلسنا
حولَه فأحسن بنا ، فرفع رأسه وهو لا يكاد يرفعه ضعفاً ،
وأنشأ يقول :

يا غريب الدارِ عن وطنه
مفرداً يبكي على شعبه
كلما جدَّ البكاء به
دبت الأسقام في بدنه

ثم أغمى عليه طويلاً ، فبينما نحن جلوس حوله إذ أقبل
طائر فوقع على الشجرة وجعل يغرد ، ففتح عينيه وجعل
يسمع تغريد الطائر ثم أنشأ يقول :

ولقد زاد الفؤاد شجاً
طائرٌ يبكي على فتنه
شفه ما شفني ، فبكي
كلنا يبكي على سكه !

قال : ثم تنفس نفساً فاضت نفسه منه ، فلم نبرح من عنده
حتى غسلناه وكفناه وتوليننا الصلاة عليه ، فلما فرغنا من دفنه
سألنا الغلام عنه فقال هذا العباس بن الأحنف .

* * *

فإذا تركنا هذه الروايات عن العباس وما أكثرها ، وانتقلنا
إلى ديوان شعره لفت نظرنا أنه ديوان كامل من شعر الحب ،
لا مكان فيه لأي غرض آخر من الأغراض التقليدية التي كانت
مألوفة في شعرنا العربي القديم ، إنه شاعر لا يمدح ولا يهجو
ولا يوثي ولا يفخر ، هو شاعر عاشق ، وعاشق فحسب ،
شهد له البحثي بأنه أغزل الشعراء ، وقصائده في حبيبته
فوز تنطق بعاطفة صادقة ، وشاعرية أصيلة ، ولغة شعرية
عذبة سائغة لا تكلف فيها ولا تصنع ، تنساب إلى الناس
رقبة صافية ..

يقول العباس عن أميرته :

أميرتي ، لا تغفري ذنبي
فإن ذنبي شدة الحب

حدث قلبي دائماً عنكمو
حق قد استحييت من قلبي

ويصف زمن العاشق ، ووقع ساعاته وأيامه وشهوره في
في النفس ، فيقول :

اليومُ مثلُ المسامِ ، حتى أرى
وجهك ، والساعة كالشهر

ماذا على أهلك أن لا يروا
عطراً ، وأنت العطير للعطر

أفسد قلبي شادن أحور
يسمر بالعينين والثغـر

لو كنت أدري أنه ساحر
علقت تعويذاً من السحر

ويبدع حين تصطرع في نفسه رغائب الحب وشهوانه مع
ما ينبغي له من تعفف ووقار ، فيقول عن النظر القاسق :

أتأذنون لصبيّ في زيارتكم
فمنذكم شهوات السمع والبصر
لا يضر السوء إن طال الجلوس به
عفّ الضمير ولكن فاسق النظر
ويقول العباس بن الأحنف عن العصيان الجميل ، العصيان
بالحب ؛

أستغفر الله إلاّ من مودتكم
فإنها حسناتي يوم ألقاه
فإن زعمت بأن الحب معصية
فالحب أحسن ما يُعصى به الله !

يلفت النظر في شعر العباس بن الأحنف موسيقاه الآسرة ،
وإذا كان القدماء قد وصفوا الأعشى بأنه صنّاجة العرب ،
فإن العباس جدير بأن يسمّى صنّاجة الشعر العربي في العصر
العباسي كله ، لما تميّز به شعره من إيقاعات موسيقية عذبة
مطرّدة ، وأجراس حلوة متناغمة وسلاسة تجعل لشعره وقعا
طيبا في النفس والعقل معا ..

ثم يلفت النظر في شعره أيضاً ، هذه الشخصية الموصلة
الطريفة ، شخصية الشاعر ، وهي دائمة الحوار والأخذ والرد ،

والقصص والسرد ، والتذكير - خلال القصائد - بأحداث
مضت وذاكرات وقعت وأيام تقضت ، مما يضيف على هذه
القصائد جواً واقعياً ، وإطاراً من الصدق ، يجعل النفس أكثر
تقبلاً لها وانفتاحاً عليها ، وهو في قصائد حبه جميعها دائم
التصريح بالشكوى ، دائم الأمل في الوصال ، دائم الاستعطاف
عن ذنب لا يدريه ، دائم الحديث عن كتمان لم يستطعه ،
فداع الحب وشاع وتناقضته الوشاة والحواسد ..

وواضح من سيرة العباس بن الأحنف أنه رافق هارون
الرشيد في حملاته على خراسان وأرمينيا ، وأنه كان رفيق
الحاشية لطيف الطباع ، مفطوراً على الحب والغزل ، حتى لقد
جعل شعره كله قصيدة حب متصلة ، وتقول كتب التراث إنه
توفي سنة مائة واثنتين وتسعين من الهجرة وقيل بل سنة مائة
وأربع وتسعين ، وإن يوم وفاته كان يوم وفاة إبراهيم الموصلي
نديم الخلفاء والكسائي النحوي المعروف وهشيمة بن الحسار
فلما رفع الأمر إلى الرشيد أمر المأمون أن يصلي عليهم ، فأمر
المأمون بتقديم العباس بن الأحنف ليصلي عليه أولاً ، فلما سئل
عن سبب تقديمه له على الآخرين أنشد المأمون من شعره :

وسمى بها ناس فقالوا إنها
هي التي تشقى بها وتعكابد
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم
إني ليمجيني الحب الجاحد

ثم قال : أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقدمة ؟

والآن مع قصيدته « فوز » :

فوز

ألم تعلمي يا « فوز » أني معذب
بحبكم ، والحين للمرء يحلب^(١)
وقد كنت أبكيكم بيثرب مرة^(٢)
وكانت منى نفسي من الأرض يثرب^(٣)
أؤملكم حق إذا ما رجعتو
أتاني صدود^(٤) منكرو وتجنب
فإن ساءكم ما بي من الصبر ، فارحموا
وإن سركم هذا العذاب ، فعذبوا
فأصبحت فيما كان بيني وبينكم
أحدث^(٥) عنكم من لقيت فيعجب

(١) الحين : الهلاك .

(٢) يثرب : الاسم القديم للمدينة المنورة .

وقد قال لي ناس تحمل دلالها
 فكل صديق سوف يرضى ويفض
 وإني لأقل بذل غيرك فاعلمي
 وبخلك في صدري الذئ وأطيب (١)
 فإني أرى من أهل بيتك نِسوة
 شبن لنا في الصدر نارا تلهب (٢)
 عرفن الهوى منّا فأصبحن حسدا
 يُخبِرن عنا من يحيء وينذهب
 وإني ابتلاني الله منكم بخادم
 يبلغكم عني الحديث ويكذب
 ولو أصبحت تسمى لتوصل بيننا
 سعدت، وأدركت الذي كنت أطلب
 وقد ظهرت أشياء منكم كثيرة
 وما كنت منكم مثلها أترقب

(١) أقل : أبغض وأكره . بذل غيرك : عطاء غيرك ووصاله .

(٢) شبن : أوقدن وأشعلن .

عرفت بما جرئتُ أشياء جنة^١
ولا يعرف الأشياء إلا المُجربُ

* * *

ولي يوم شيعت الجنازة قصة^٢
غداة بدا البدر الذي كان يحجب
أشرتُ إليها بالبنان فأعرضت
تبسمُ طَوْرًا ثم تزوي فتقطب^(١)
غداة رأيتُ الهاشمية غدوة^٣
تهادى حواليتها من العين ورب^(٢)
فلم أرَ يوماً كان أحسن منظرًا
ولحن وقوف وهي تنأى وتندب^(٣)
فلو علمت « فوز » بما كان بيننا
لقد كان منها بعض ما كنت أرمب

(١) البنان : طرف الاصبع . تزوي فتقطب : تزوي ما بين حاجبيها
علامة الغضب والاستياء .

(٢) الربرب : القطيع أو السرب من بقر الوحش ، والمقصود به هنا
سرب من الحسان . العين : جمع عينا ، وهي البقرة الوحشية (كانت
العرب تشبه الحسان بها بناتها) .

(٣) تنأى : تبعد .

ألا جعل الله الفدا حكمة
 « لفوز » التي إنشئ بها لعذاب
 فما دونها في الناس للقلب مطلب
 ولا خلفها في الناس للقلب مذهب (١)
 وإن تلك « فوز » باعدتنا وأعرضت
 وأصبح باقي حبلها يتقضب (٢)
 وحالت عن العهد الذي كان بيننا
 وصارت إلى غير الذي كنت أحسب (٣)
 وهان عليها ما ألقى فربما
 يكون التلاقي والقلوب تقلب (٤)
 ولكنني والخالق الباري الذي
 يزار له البيت العتيق المحجب
 لأستمسكن بالود ما ذر شارق
 وما ناح « قري » وما لاح كوكب (٥)

(١) مذهب : سبيل أو مذهب .

(٢) يتقضب : يتقطع . حبلها يتقضب : أي يذهب ما بيني وبينها
من ود وحب .

(٣) حالت : تغيرت وتبدلت .

(٤) تقلب : تتغير وتبديل من حال إلى حال .

(٥) ذر : برغ ولبع ولاح . شارق : أي لجسم في السماء . قري :
فرع من الحمام حسن الصوت .

وأبكي على فوز بعين سقيمة
 وإن زهدت فينا ، نقول : سترغب^(١)
 ولو أن لي من مطلع الشمس بكرة
 إلى حيث تهوى بالعشي فتغرب
 أحيط به ملكاً ، لما كان عديها
 لعمر كـ .. إني بالفتاة لمعجب^(٢)

وقد استطاعت الشاعرة العراقية الدكتورة عاتكة الخزرجي - في رسالتها للدكتوراه عن العباس بن الأحنف - أن تكشف النقاب عن سرّ محبوبته فوز ، وأن تثبت أنها غلية بنت المهدي أخت هارون الرشيد ، وأن العباس لم يستطع أن يبوح باسمها في شعره ، فرمز لها باسم «فوز» .

-
- (١) سقيمة : الباكية بالدموع الحارة .
 (٢) عدلها : كفراً لها ومباراً لقيمتها ومعبوراً عن تقديرها وإعزازي لها .

[وحيد المغنية]

لابن الرومي

وهذه مغنية خلدها شاعر .

أما المغنية فهي « وحيد » أشهر مغنيات العصر العباسي
وأبعد من صيتاً وأكثرهن جالاً وفتنة ، اجتمع لها الصوت
الرخيم والحن البديع ، فتمت صورتها على أحسن وجه لمن
يرى ولمن يسمع ..

وأما الشاعر فهو ابن الرومي ، أشهر شعراء العصر العباسي
كله ، وإن يكن أقل الشعراء حظاً من عناية التاريخ الأدبي
وإنصاف النقاد والدارسين قدامى ومحدثين ، حتى كان الكتاب
الذي ألّفه عنه الأديب الراحل عباس محمود العقاد دراسة
منهجية نفسية جامعة ، وضعت في مكانه من مسيرة الشعر
العربي ، وأنصفته من عنت التاريخ وتجاهل المتأدبين .

وصلت لنا صورة ابن الرومي — الشاعر الفذ — في إطار
من لوحاته الشعرية البارة وقصائده المثلثة فناً ذكياً وحياء

متدفقة ، وكان أقصى ما تقوله عنه كتب الأدب إنه شاعر
هجاء لم يسلم أحد من لسانه ، برع في وصف الأمور الدنيا
للحياة وشؤونها السوقية ، ألا ترون ابن المعتز - الخليفة
الشاعر - وهو يصف الملal بأنه زورق من فضة قد أثقلته
حمولة من عنبر ، بينما يقنع ابن الرومي بوصف خباز يتفنن في
صنع رفاقته على النار :

ما بين رؤيتها في كفه كرة
وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة
في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

ويروي البيت الثاني على هذه الصورة أيضاً :

إلا بمقدار ما تنداح دائرة
في لجة الماء يلقي فيه بالحجر

ولهذا ، فقد بقي ديوان ابن الرومي حتى يومنا هذا ، في
صورته الكاملة ، شبه مفقود أو مفقود ، اللهم إلا بضعة فصول
منه حققها ونشرها الأديب الراحل كامل كيلاني ، بالرغم من
أنه - كما يقول الرواة - أطول ديوان محفوظ في الشعر العربي
كله ، لكن إهمال القدماء له وحنقهم عليه وضيقهم بهجائه
المقذع - الذي يحتل مساحة غير يسيرة من الديوان - فضلاً
عن أن نسخة الديوان الكاملة لم تكن ميسورة في بعض البلاد

العربية التي كان لها قصب السبق في إعادة طبع بعض الدواوين وتحقيقتها - كل ذلك جعل شعره غير مجموع بين أيدينا حتى اليوم .

يقول ابن خلكان يصف ابن الرومي ويقول : « هو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب ، يفرغ على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يترك فيه بقية » .

ويقول عنه العقاد : « الطبيعة الفنية هي الطبيعة التي بها يقظة بيّنة للإحساس بجوانب الحياة المختلفة . وتنام هذه الطبيعة أن تكون حياة الشاعر وفنه شيئاً واحداً لا ينفصل فيه الإنسان الحي عن الإنسان الناظم ، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه يخفي فيها ذكر الأماكن والأزمان ولا يخفي فيها ذكر خالجة ولا هاجسة مما تألف منه حياة الإنسان .

ثم يقول :

« وابن الرومي واحد من أولئك الشعراء القليلين الذين ظفروا من الطبيعة الفنية بأوفى نصيب . فمن عرف ابن الرومي الإنسان حق عرفانه ولم ينقصه منه إلا الفضول ، والغريب مع هذا أن ابن الرومي الشاعر هو ابن الرومي الذي لم يعرف

بعد وإن عُرفت له مزايا وثالث حسنات له حقها من الإعجاب .

* * *

وُلد أبو الحسن علي بن العباسي بن جريج الرومي سنة إحدى وعشرين ومائتين من الهجرة ، من أصل رومي غير عربي ، فجدّه جريج أو جورجيس : يوناني ، وأمه من أصل فارسي ، أما أبوه فقد مات عنه وهو حدث صغير .

ويقولون إن حياته اكتنفها الشقاء واليأس والهم من كل جانب ، فقد رزق ابن الرومي ثلاثة أبناء ماتوا جميعاً في طفولتهم ، ورواهم بأبلغ وأفجع ما رثى به والد أبنائه ، ثم لحقت بهم زوجته فتمت بها مصائبه وأحزانه .

والذين يحاولون أن يقدموا له صورة وصفية يقولون إنه كان صغير الرأس مستدير أعلاه ، أبيض الوجهه يخالط لونه شحوب في بعض الأحيان وتغير ، ساهم النظرة ، بادية عليه رجوم وحيرة .. لخبلاً ، أقرب إلى الطول ، كث اللحية ، بادر إليه الصلع والشيب في شبابه ، وأدركته الشيخوخة الباكرة فاعتل جسمه وضعف نظره وسمعته ، ثم ما لبث - في شيخوخته - أن تبدلت ملامحه وتقوم ظهره ولحق به ما لا بد أن يلحق بشئ من تغير نتيجة الأسقام والهموم وقوالي الهن .

ويؤخذ من الروايات الموثوق بها أنه توفي سنة أربع وثمانين ومائتين من الهجرة ، وأنه أدرك في حياته ثمانية خلفاء من بني العباس هم : الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد الذي توفي بعد ابن الرومي ببضع سنوات. والمتصفح لأشعار ابن الرومي - وما أكثرها وأحفلها بسمات العبقرية والتفنن - يدرك على الفور أنه كان شاعراً محباً للحياة ، منغمساً في ظواهرها وجوهرها ، ملتقطاً لكل ما فيها من صور وأشكال ، مشغولاً لمعانها ومدركاتها ، وكانت عبادة الجمال - وهو أسمى تعبير عن الحياة - دأبه وديدنه .

* * *

هذا النهم بعبادة الجمال ، وحب الحياة ، هو الذي جعله يهوى مغنية عصره الذائعة الصيت ، الفاتنة الجمال ، ويهيم بها وجداً وعشقا ، وترتجف بهذا الحب ريشته الساحرة الملهمة ، فيفتن في رسم لوحته الشعرية الفريدة عن « وحيد » .

والقصيدة واحدة من عيون قصائده، تنطق بقدرته الخارقة على التصوير والتجسيم والتجسيد ، والاستقصاء البارع اليقظ في تناول أدق التفاصيل ، وذاتيته المتفردة كشاعر ، تلك التي تتفجر بها كلماته وموسيقاه وقوافيه .

ويصل ابن الرومي إلى ذروة الإبداع الشعري عندما يرسم بريشته المقتدرة صورة وصفية لوحيد وهي تغنّي ، هنا نجد

لونهاً من التناول الشعري لا مثيل له في شعرنا العربي كله ،
بينما يرسم الشاعر العاشق كل خالجة من خواجها وكل حركة
من حركاتها الصوتية هدوءاً وانطلاقاً ، بسطاً وقبضاً .

وفي ختام هذه اللوحة الشعرية الفاتنة ، يكشف ابن الرومي
النقاب عن مدى حبه لوحيد ، وعمق تعلقه بها ، فهو لا يستمع
لنصيح يلومه في هواها ، بعد أن تملكه هذا الهوى وسد عليه
كل الاتجاهات والأبعاد ؛ عن يمينه وعن شماله وقدامه وخلفه ..
فأين منه المفر ؟

إنه حب من طراز فريد .. فهو حب دائم التجدد ،
دائم المنح والعطاء .

* * *

يقول ابن الرومي :

نار الحسن :

يا خليلي ، تيممتني وحييد
ففؤادي بهسا معنشي عميد^(١)

(١) تيممتني : ملكتني وأسرتني بحبها . المعنشي : الذي يكلف بمسا
لا قبل له به . العميد : من هداه العشق وأضاه الحب .

عادة زانها من القطن قد
 ومن الطي مقلتان وجيد^(١)
 وزها ما من فرعها ومن الحد
 ين ، ذاك السواد والتوريد^(٢)
 أوقد الحسن ناره في وحيد
 فوق خد ما شانه تحديد^(٣)
 فهي برد بخدها وسلام
 وهي للماشقين جها جيد
 لم تضر قط وجهها وهو ماء
 وتذيب القلوب وهي حديد^(٤)
 ما لما تصطليه من وجنتها
 غير رشاف ريقها تبريد^(٥)
 مثل ذاك الرضاب أطفأ ذاك ال
 وجد ، لولا الإفاء والتصريد^(٦)

(١) القد : القوام ، الجيد : العنق ، مقلتان : عينان .

(٢) فرعها : شعرها ، التوريد : الاحوار .

(٣) تحديد : اضطراب وتشنج ناتج عن الخزال .

(٤) لم تضر : لم تؤذ .

(٥) تصطليه : تمنائي من حرارته .

(٦) التصريد : المعجز عن بنوخ الري لقله ما يروى به .

وصفاً وحيداً :

وغريرٍ بحسبها قال : صفتها ا
قلت : أمران ، هين وشديد
يسهل القول إنها أحسنُ الأشياءِ
، 'طراً' ، ويعسرُ التحديد (١)
'شمس' دجن ، كلا المتريثن - من شم
س ويدر - من نورها يستفيد (٢)
تتجلى للتأظرين إليها
فتفتي بحسبها وسعيد
ظبية تسكن القلوب وترعاً
ها ، وقرية لها تفريد (٣)

وحيد وهي تفتي :

تفتي ، كأنها لا تفتي
من سكون الأوصال ، وهي تجيد

(١) 'طراً' : جيماً .

(٢) دجن : ظلام .

(٣) 'قرية' : حامة حسنة الصوت .

لا تراها هناك ، تحفظ عين
 لك منها ، ولا يدرك ويريد^(١)
 من هدوء ، وليس فيه انقطاع
 وسُجُوء ، وما به تبليد^(٢)
 مد في شاور صوتها نفَسٌ كما
 في ، كأنفاس عاشقها مديد^(٣)
 وأرق الدلال والفنج منه
 وبرام الشجا ، فكاد يبيد^(٤)
 فتراه يموت طوْراً ويحيى
 مستلذ ببطه والنشيد
 فيه وشي ، وفيه تحلي من النغ
 سم مصوغ يختال فيه القصيد^(٥)
 طاب فوها وما ترجع فيه
 كل شيء ها بذك شهيد^(٦)

-
- (١) يدرك الوريد : يتلى . دماً نتيجة الجهد والشقة .
 (٢) السُجُوء : السكون واللبونة .
 (٣) شاور صوتها : قبة صرتها وعظمته .
 (٤) الفنج : الدلال . الشجا : الحزن وانشغال البال .
 (٥) وشي : حلية وتزيين .
 (٦) فوها : فيها . ترجع : تعيد التردد .

تَغَبُّ ينقعُ الصدى ، وغناء
 عنده يوجدُ السرور الفريد^(١)
 فلها - الدهر - لائمٌ مستفيدٌ
 ولها - الدهر - سامعٌ مستعيدٌ
 في هوى مثلها يخفُ حليمٌ
 راجحٌ حله ، ويغوى رشيد^(٢)
 ما تعاطي القلوب إلا أصابت
 بهوامها منهن حيث تريد
 وتزُ العزف في يديها مضاهٍ
 وتَرَ الرَجْفَ فيه سهمٌ شديد
 وإذا أنبضته للشرب يوماً
 أيقن القوم أنها تنصيد^(٣)
 « معبد » في الغناء وابن « سريج »
 وهي في الضرب « زلزل » و « عقيد »^(٤)

(١) الثقب : القدير البارد المساء لم تصبه الشمس . ينقع الصدى :
 يبل العيش ويروي الظما .

(٢) يخف : يطيش عقله .

(٣) الشرب : جمع شارب . أنبضته : سددته .

(٤) معبد : ابن سريج وزلزل وعقيد : من مشاهير المغنين والعارفين
 في العصر المباسي .

عيبها أنها إذا غشتِ الأحرار
رَ ظَلُّوا وممٌ لديها عيب
واستزدت قلوبهم من هواها
برأقامها ، وما لديهم مريد^(١)

التوحيد في الحب :

وحسان عرض لي ، قلت : مهلاً
عن وحيد ، فحقها التوحيد
حسنها في العيون حسنٌ وحيدٌ
فلها في القلوب حبٌ وحيدٌ
ونصبح يلومني في هواها
ضلٌ عنه التوفيق والتسديد
لو رأى من يلوم فيه لأضحى
وهو لي المسترث والمستزيد
ضَلَّةٌ للفؤاد يحنو عليها
وهي ترمو - حياته - وتكيد^(٢)

(١) وقى : جمع رقية ، ما له تأثير السحر .

(٢) ضلة : منية وأمل .

سحرته بمقلتيهـــــــــــــــــا فأضحت
 عنده والذميم منهــــــــــــــــا حميد
 'خلقت فتنة' ، غناءً وحسناً
 ما لها فيها جميعاً نديد (١)
 فهي 'نعمى' ، يمدُّ منها كبيرٌ
 وهي بلوى ، يشيب منها وليد (٢)
 لي - حيث انصرفتُ منها - رفيقٌ
 من هواها - وحيث حلَّت قعيدٌ
 عن يميني ، وعن شمالي ، وقُدّاً
 مي وخلفي ، فأين عنه أحميد
 سدّ شيطان حبّها كلُّ فجٍّ
 إن شيطان حبّها لمريد (٣)

(١) نديد : مثل ونظير .

(٢) يمد : يزول ويهتز .

(٣) فج : طريق . مريد : الخبيث الشرير .

جهال صوت وصورة :

ليت شمري إذا أدام إليها
كرّة الطرفِ ، مبدىء ومُعبد^(١)

أهي شيء لا تسأم العين منه ؟
أم لها كل ساعة تجديد

بل هي العيش لا يزال متى استه
رض يُعطي غرائباً ويفيـد

منظرٌ ، مسمعٌ ، معانٍ من اللّه
ور ، عتادٌ لما يحبه عتيد^(٢)

لا يدبّ الملل فيها ، ولا ينقـد
ض من تعقد سحرها فوكيد

حسنها في العيون حسنٌ جديد
قلها في القلوب حبٌ جديد

(١) كرتة الطرف : إعادة النظر والتأمل .

(٢) عتاد : زخيرة ومتاع .

شكوى واستعطاف :

أخذ الدهر يسا وحيد لقلبي
منك ، ما يأخذ المُنْدِيلُ المعيد ^(١)
حظٌ غيري من وِصْلِكُمْ قرّة العِ
نِ ، وحظّي البُحْكَاءِ والتسويد
غير أُنِي مُعَلِّلُ مِنْكَ نَفْسِي
بِعِدَاتٍ خِلالهن وَعِيدٌ ^(٢)
ما توالين نظرةً مِنْكَ موتٌ
لي بِمِيتٍ ، ونظرةً تَحْلِيْدُ
تتلاقى ، فلحظةً مِنْكَ وَعْدٌ
بِوِصَالٍ ، ولحظةً تَهْدِيْدُ
قد تَرَكْتَ الصَّحَّاحَ مَرْضَى بِمِيدٍ
نَ "نَحْوَلًا" وَأَنْتَ خَوْطٌ بِمِيدٍ ^(٣)

(١) المَدِيلُ : القَبْرُ المُقَلَّبُ الْأَسْوَالُ .

(٢) عِدَاتٌ : جَمْعُ عِدَةٍ ، وَعِدٌ أَوْ أَمْنِيَّةٌ .

(٣) خَوْطٌ : الْقَمِيصُ النَّاعِمُ .

والهوى لا يزال فيه ضعيف
 بين الحاظيه صريع^(١) جليد
 ضافني حبك الغريب ، فألوى
 بالرقاد النسيب^(٢) ، فهو طريد^(٣)
 عجباً لي ، إن الغريب مقيم
 بين جنبي^(٤) ، والنسيب شريد
 قد مللنا من ستر شيء مريح
 فشتبه ، فهل له تجريد^(٥) !
 هو في القلب ، وهو أبعد من نج
 الثرىا ، فهو القريب البعيد !

* * *

(١) جليد : ذو صلابه وجلند .

(٢) ضافني : أمالي واشتدقني . ألوى به : ذهب به وعصف به .

(٣) تجريد : انكشاف وظهور .

أراك عصي الدمع

لأبي فراس الحمداني

وهذا نموذج للشعر العربي الأصيل إذا ما صدر عن وجدان عاشق فارس ، يعتز بنسبه العربي العريق ، الذي ينتهي إلى قبيلة « تغلب » العربية التي اشتهرت بالنخوة والفروسة ، ونسري في عروقه دماء عربية أصيلة جعلته دائم الفخر والاعتزاز بنفسه ومكانته ، ولم لا ؟ ، وهو الشاعر الفارس الأمير وابن عم الأمير سيف الدولة أمير حلب ، أشهر أمير عربي خلفه شاعر العربية الكبير « المتني » في سيفياته التي قالها وهو في جواره ، يصف وقائعه ، ويسجل أحداث زمانه .

ذلك هو أبو فراس الحمداني ، ولد بالموصل سنة تسماية واثنتين وثلاثين ميلادية ، وقتل أبوه وهو طفل صغير ، فرباه ابن عمه وزوج أخته سيف الدولة ، وهو الفارس الأديب ، فنشأ أبو فراس على الفروسية والأدب ، ثم قلده سيف الدولة الإمارة

على «منبج وحران» وأعمالها وهو في السادسة عشرة من عمره
واصطحبه معه في معاركه ، وما كان أكثرها ، مع الروم
الطامعين في الوطن العربي الذي تفتت وانقسم بالحلل الدولة
العباسية وانقسامها على نفسها إلى إمارات ومناطق نفوذ .
وقدّر لدولة الحمدانيين ولسيف الدولة أن يكونا القلعة الوحيدة
الصامدة في وجه الدولة البيزنطية ، وأن يكونا الدرع الواقية
للشعور العربية في مواجهة أعظم دول ذلك الزمن .

ويؤسّر أبو فراس في إحدى معارك سيف الدولة مع
الروم ، وينقله الروم إلى القسطنطينية ، ويظلّ في الأسر
أربع سنوات ، ويقال بل هي سبع سنوات ، وتوالت رسائله
لسيف الدولة ، وقصائده الباكية المستعطفة يطلب فيها مفاداته .
ويختلف المؤرخون في سبب بطل سيف الدولة وتراخيه في
مفاداته . يقول البعض هي شواغله ومسؤولياته والأحداث
المتتالية التي مرت بها حلب ، والبعض الآخر يحاول أن يوحى
بأنه كانت هناك منافسة خفية بينه وبين سيف الدولة ، وأن
سيف الدولة كان يخشى على إمارته من ابن عمه ، وهو رأي
لا تقوم عليه شواهد أو أدلة قوية ، وثمة من يقول إن بلاط
سيف الدولة شهد مؤامرة دبرها بعض الخاقدين على أبي فراس
أو غرت صدر سيف الدولة عليه فلم يسرع إلى مفاداته ..

على أيّ ، لقد أطلق سراح أبي فراس بعد أن اقتداه ابن
عمه ، وولاه سيف الدولة إمارة حمص ، ثم مات بعد عا.

واحد . وقبأة قامت الحرب بين أبي فراس وأمير حلب
الجديد : أبي المعالي بن سيف الدولة .. وابن أخت أبي فراس
نفسه .. وتنتهي الحرب بمقتل أبي فراس قرب حمص سنة
تسعمائة وثمانين وستين ، وينتهي معها طموحه وفخره
وفروسيته ..

* * *

ولأبي فراس ديوان من الشعر القوي الجزل، العذب الأنغام،
الصادق العاطفة والتصوير ، يسجل فيه تاريخ حياته ويصور
فروسيته ويفخر بآثر أسرته ، ويثني على سيف الدولة
والعلويين .. ومن بين قصائده هذا الديوان اشتهرت روميته
أي القصائد التي قالها وهو في الأسر، وهي تكشف عن مدى
شكواه وعمق حزنه وورثته لأقربائه الذين فقدهم أثناء الأسر
والغياب عن الوطن خاصة أمه .

لكن قصيدة من قصائد أبي فراس يتاح لها من الذبوع
والشهرة ما لا يتاح لبقية قصائده ، تلك هي مطوئته « أراك
عصي الدمع » التي تصوّر أدق تصوير وجدان هذا الشاعر
الفارس، الذي يذوب رقة وعاطفة ولكن في اعتزاز وشموخ ،
ومن خلال نفس أبيه ترفض كل ذلة ، ولا تعرف إلا الإباء
والجرأة والإقدام . فالشاعر الذي يذوب وجداً وهياماً في
مواقف الحب والصبابة ، لا يحني رأسه ، ولا يدوس على
كرامته ، لكنه دائماً شامخ أبي ، شأنه في حروبه ومعاركه

مع الخصوم والأعداء .. هذه القصيدة التي اشتهرت عندما
دخلت ساحة الغناء العربي، ورددتها الألوف ، معجبةً بحاطقة
الشاعر الفارس ، وكبريائه وشحمه ، وفنه الشعري المقتدر ،
وصياغته العذبة القوية .. هي التي سنتوقف عندها الآن ،
قراءةً وتذوقاً وتأملاً ..

* * *

يقول أبو فراس الحمداني ..

استهلال وتقديم :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر^(١)
أما للهوى نهبي عليك ولا أمر^(٢)
بلى ، أنا مشتاقٌ وعندي لوعة^(٣)
ولكنّ مثلي لا يذاع له سر^(٤)
إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى
وأذلت دمعاً من خلائقه الكبير^(٥)

(١) شيمتك : طبيعتك وخلقتك .

(٢) أضواني : عذبني وشجاني . خلائقه : جمع خلقة وهي الطبع
والصفة الميزة .

تَكَادُ تَضِيءُ النَّارُ بَيْنَ جَوَانِحِي
 إِذَا هِيَ أَذَكَّتْهَا الصَّبَابَةُ وَالْفِكْرُ^(١)
 مَعَلَّتْنِي بِالْوَصْلِ وَالْمَوْتِ دُونَهُ
 إِذَا بَتُّ ظَمَأَنَا فَلَا تَزُلُ الْقَطْرُ^(٢)
 حَفِظْتُ وَضِئْتِ الْمَوَدَّةَ بَيْنَنَا
 وَأَحْسَنُ مِنْ بَعْضِ الْوَفَاءِ لَكَ الْغَدْرُ
 وَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا صَحَائِفُ
 لِأَحْرَفِهَا ، مِنْ كَفِّ كَاتِبِهَا ، بِشْرُ

هي والوشاة :

بِنَفْسِي مِنَ الْغَادِينَ فِي الْحَيِّ غَادَةٌ
 هَوَايَ لَهَا ذَنْبٌ ، وَبِهِجَّتْهَا عُذْرُ
 تَرَوِّغُ إِلَى الْوَاشِينَ فِي ، وَإِنْ لِي
 لِأَذْنَابِهَا عَنْ كُلِّ وَاشِيَةٍ وَقَرُّ^(٣)

(١) أَذَكَّتْهَا : أَشْعَلَتْهَا .

(٢) مَعَلَّتْنِي بِالْوَصْلِ : مِنْ تَبَسُّطِ لِي الْأَمَالِ فِي الْوَصْلِ . الْقَطْرُ : الْمَطَرُ .

(٣) تَرَوِّغُ : تَقِيلُ وَتَسْتَمِعُ . وَقَرُّ : صَمَمٌ .

بدوّتُ وأهلي حاضرون ، لأنني
أرى أن داراً لست من أهلها قفر^(١)
وحاربتُ قومي في هوالك^٢ ، ولأنهم
ولايائي^٣ ، لولا حبك ، الماء والخمر
فإن يك ما قال الوشاة ولم يكن
فقد يهدم الإيمان ما شئت الكفر

بين الشاعر والحبيبة :

وفيتُ وفي بعض الرفاء مذلة^٤
لإنسانة في الهي شيمتها الفدر^(٢)
وقور^٥ ، وريعان الصبا يستفزها
فتأرن^٦ أحياناً كما أرن^٧ المهر^(٣)

(١) بدوت وأهلي حاضرون : اشتلقت حياتي عن حياة قومي ،
انصرفت عنهم وملئت اليك .

(٢) شيمتها : طبيعتها وخلقتها .

ويروى البيت أيضاً : « لفاتن^٨ » في الهي شيمتها الفدر .

(٣) أرن : نشط وروح .

تسألني : مَنْ أنت ؟ وهي عليه
وهل بفتى مثلي على حاله 'نكسر'
فقلت لها : لو شئت لم تتعشني
ولم تسألني عني ، وعندك بي خبر (١)
فقلت : لقد أزدى بك الدهر بعدنا
فقلت : معاذ الله بل أنت لا الدهر (٢)
وما كان للأحزان لولاك مسلك
إلى القلب ، لكن الهوى للبلى جسر
وتهلك بين الهزل والجد مهجة
إذا ما عداها البين عذتها الهجر (٣)
فأيقنت أن لا عز بعددي لعاشق
وأن يدي بما عقلت به صفر (٤)
وقلتب أمري لا أرى لي راحة
إذا البين أنساني ألح بي الهجر

(١) التعتت : طلب المشقة .

(٢) أزدى به : هابه ووضع من قيمته ومثله .

(٣) البين : الفراق والبعد .

(٤) صفر : خاوية فارغة .

فعدت إلى حكم الزمان وحكمها
لها الذنب لا تجزى به ولي العذر

فخر واعتزاز بالنفس :

فلا تنكريني يا ابنة العم ، إنه
ليعرف من أنكرته البدو والحضر

ولا تنكريني ، إنني غير منكسر
إذا زلّت الأقدام ، واستنزل الذعر

وإني لجرار لكل كتيبة
معوّدة أن لا يخلّ بها النصر

وإني لنزال بكل مخوفة
كثير إلى نزالها النظر الشّور^(١)

فأظلم حق تروفي البيض والقنا
وأسغب حق يشيع الذئب والنسر^(٢)

ولا أصبح الحي الخلف بقارة
ولا الجيش ، ما لم تأته قبلي النذر

(١) النظر الشّور : النظر بجانب العين مع الاغراض أو الغضب .

(٢) البيض : السيوف . القنا : الرماح . أسغب : أجوع .

ويا ربّ دارٍ لم تخفني منيعه
 طلعتُ عليها بالردى أنا والفجرُ
 وحيّ رددت الخيل حتى ملكته
 هزيماً ، وردتني البراقع والخمر^(١)
 وساحبة الأذيال نحوي لقيتها
 فلم يلقيها جاني اللقاء ولا وعر
 وهبتُ لها ما حازه الجيش كله
 ورحلت ولم يكشف لأبياتها ستر
 ولا راح يطغيني بأثوابه الفنى
 ولا بات يثني عن الكرم الفقر^(٢)
 وما حاجني بالمال أبني وفوره
 إذا لم أصن عرضي فلا وفر الوقر

(١) الخمر : جمع « خمر » وهو غطاء الرأس للموأة .

(٢) يثني : يرثي ويدقني .

قصة الأسر :

أسرت^١ وما صغي بعزل لدى الوغى
ولا فرسي مهر ولا وبثه غشور^(١)
ولكن إذا حثم القضاء على امرئ
فليس له بر^٢ يقيه ولا بجر
وقال أصيحابي : القرار أو الردى ؟
فقلت : هما أمران أحلاهما مر^٣
ولكنني أمضي لما لا يعيبي
وحسبك من أمرين خيرهما الأسر
يقولون لي بعث السلامة بالردى
فقلت : أما والله ، ما تألني خسر
وهل يتجافى عني الموت ساعة^٤
إذا ما تجافى عني الأسر والضر^٥ ؟
هو الموت فاختر ما علا لك ذكره
فلم يمت الإنسان ما حيي الذكر

(١) المئزل : جمع أعزل ، الذي لا سلاح معه . الفير : الجمال ،
غير المحرب .

ولا خير في دفع الردى بمذلة
صكها ردها يوماً بسوءته عمرو^(١)
ينثون أن خلّوا ثيابي ، وإنما
عليّ ثيابٌ من دماهمو حمز
وقائمٌ سيفٍ فيهمو اندقّ نصله
وأعقاب رمحٍ فيه قد حطّم الصدر

عودة إلى الفخر :

سيدكرني قومي. إذا جدّ جدّهم
وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر
فإن عشت^٢ ، فالطعن الذي يعرفونه
وتلك القنا والبيض والضمّر الثقر^(٢)
وإن مت^٣ فالإنسان لا يد ميّت
وإن طالت الأيام وانفسح العمر^(٣)

(١) السوءة : الفعلة القبيحة التي تجلب المذلة والعار .

(٢) القنا : الرماح . البيض : السيوف . الضمّر الثقر : الجياد
الضامرة الثقراء اللون، كناية عن سرعتها الفائلة وكرم عنصرها .

(٣) انفسح العمر : امتدّ الأجل .

ولو سدّ غيري ما سدّدت اكتفوا به
وما كان يفلو التبر لو نفق الصفر^(١)
ونحن أناس لا توسّط بيننا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر^(٢)
تهون علينا في المعالي نفوسنا
ومن بخطب الحساء لم يغلبها المهر
أعزّ بني الدنيا وأعلي ذوي العلا
وأكرم من فوق التراب ولا فخر^(٣)

* * *

(١) التبر : الذهب . الصفر : النحاس .

(٢) الصدر : الصدارة والرئاسة والسيادة .

(٣) من فوق التراب : الناس جميعاً .

يا ظبيسة البسان

للشريف الرضسي

لا يذكر الشريف الرضي إلا ويسرع إلى البال قوله :

ولقد مررتُ على ديارهمو
وطاولوها بيد البلى كتهبُ

فوقفت حق ضجُّ من كَلْبٍ
نِضْوي ، ولجُّ بعدلي الرّكب

وتلفست عيني ، فذ خفيت
عني الطلول تلفت القلب

ويستحضر الخيال هذه الصورة الفريدة في شعونا العربي القديم ، صورة من يمرّ على آثار أحبائه بعد رحيلهم ، وتحتفي الطلول من أمام عينه ، ولا تستطيع العينان أن تريا بعد شيئا ، هنا يتلفت القلب ، فتتمد دائرة البصر ، ويبصر القلب بعد أن عجزت العينان .

والشريف الرضي أحد الأصوات الكبيرة في قافلة شعراء
العربي ، صوت له تفرد وأصالة وتمایزه ، وله أيضاً جلاله
وجماله وعذوبته وتدفقه ، واقتداره الفني الذي
يتكى على حسن مرهف ، ووجدان ذكي ، وقلب كبير
متفتح .

تقول عنه كتب التراث إنه كان مهيباً بالغ الاعتداد
بشخصيته ، وكنيته أبو الحسن ، وقد سمي الشريف الرضي
لأنه كان نقيب الأشراف ، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي
ابن أبي طالب ، وهو صاحب الفضائل الشائعة والمكارم
الدائمة . كما كانت تسند إليه إمارة الحج والمظالم ، حجّ بالناس
مرات ، وكان أحد علماء عصره في الدين واللغة والأدب .

ويقول عنه القدماء إنه أشعر قريش ، لأن المجيد منهم
ليس بكثير والمكثر ليس بمجيد ، أما هو فقد جمع بين الإكثار
والإجادة .

ونطالع في شعره ما يملؤنا يقيناً بأنه كان عزيز النفس
رفيع الهمة .. يقول مخاطباً القادر بالله الخليفة العباسي
(ولنضع في اعتبارنا أن الشريف الرضي كان نقيب الطالبين
نسبة إلى آل طالب الطالبين بالخلافة) :

عطفاً ، أمير المؤمنين ، فإننا
في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت
أبدأ ، كلانا في المفاخر معرق
إلا الخلافة قدمتك ، فإنني
أنا عاطلٌ منها وأنت مطوق

ولد الشريف الرضي عام ثلاثمائة وتسعة وخمسين من
الهجرة ، وتوفي عام أربعمائة وستة . وخلال سنوات عمره
السبع والأربعين ، ترك الشريف ديواناً شعرياً ضخماً في جزأين ،
ومصنفات عدة ، أبرزها : المتشابه في القرآن . مجازات
الآثار النبوية . نهج البلاغة للإمام علي . تلخيص البيان عن
مجازات القرآن . الخصائص . الحسن من شعر الحسن (مختارات
من شعر ابن الحجاج) . أخبار قضاة بغداد . ورسائل الشريف
الرضي في ثلاثة مجلدات . وكتاب سيرة والده .

أما كيف ترك لنا نقيب الأشراف ، ونقيب الطالبين
الشريف الحسيني شعراً في الغزل كأرق وأعذب ما يكون
الشعر ، فهذا سؤال تكشف إجابته عن حقيقة هذا الشاعر
الكبير الذي لم يطمس النشاط الديني والشمي شاعريته أو
فنه .. ولكأنني به يتفنن في إخفاء عواطفه ومشاعره
— حفاظاً على مكانته الدبيلة ومنزلته بين قومه — فيأبى

شعره إلا أن يفضحه ، ويكشف الخفي المستور من أسرارهِ
وهواجس نفسه ونبضات قلبه ، وإلا فكيف قدر له أن
يقول عن حقيقة الشوق :

أقول - وقد أرسلتُ أول نظرة -
ولم أرَ من أموى قريباً إلى جنبي
لئن كنتُ أخليتُ المكان الذي رى
فهيئاتُ أن يخلو مكانك من قلبي
وكنتُ أظنُ الشوق للبعد وحده
ولم أدرك أن الشوق للبعد والقرب
خلا منك طريقي ، وامتلا منك خاطري
كانك من عيني 'نقلت' إلى قلبي

وكيف استطاع أن يعبر عن « الحنين » في هذه الصورة
الشعرية الفريدة ، العذبة الصياغة ، الجميلة الجرس والأداء :

أحنُّ إلى لقائك كل يومٍ
وأسأل عن إيابك كل وقتٍ
وأذكر ما مضى ، فيفيض صبري
وتنفر عبرتي ، ويبوح صمتي
ولي قلب إذا ذكر التـ____ـلاقي
تظلم من يد البين المشت

بل كيف ذاب رقة ووجدأ حين قال :
 يا مقلقي ، قلقي عليـكا
 وأظنـه ذني إليـكا
 أنت الشفيق فلو جنـب
 ست ، لما أخذت على يدكـا
 أميتـ ثالث ناظريـ
 فكيف أقنـي ناظريكـا
 وكفـاك أني لست أعـد
 قدـ يختصري إلا عليـكا

والمتأمل في شعر الشريف يلاحظ على الفور حرصه على
 تأكيد معنى العفاف في غزليته ، وإن تكن رغبات نفسه
 الدفينة وأشواقه الحرى ، وعواطفه الجامحة المشبوبة ، تتزى
 من خلال تحفظاته ، وكيف ينسى أنه أمير الحج ونقيب
 الأشراف والقاضي الذي ينتظر في المظالم والمرشح لإمارة
 المؤمنين ... كيف ينسى هذا كله وهو ينقل إلينا مثلاً حديث
 المضاجع فيقول :

خلونا فكانت عفة لا تنفـ
 وقد رفعت في الحي من الموانع

سلوا مضجعي عني وعنهما ، فإننا
رضينا بما يُخبرن عنا المضاجع

وُلد الشريف الرضي بعد وفاة أبي الطيب المتنبي بخمس
سنوات ، وتلقى دراساته الأولى على أيدي أساتذة شديدي
الإعجاب بالمتنبي ، ولم يشهد في صباه أو شبابه حلقة من حلقات
الدرس أو محفلاً من محافل الأدب إلا ولمس فيه الإعجاب
بالمتنبي والحديث عن شعره ، ومن هنا كان إعجابه الداخلي به ،
وترسمه لخطاه ، واقتفاؤه لآثاره ، ثم معارضاته لأشهر
قصائده ، ووقوعه على الكثير من معانيه وعباراته ، ولكن
في خفة وذكاء ورشاقة ، ودون أن يُتَّهم بالسرقة أو النقل .

بالإضافة إلى هذا ، يطالعنا في شعر الشريف أيضاً صياغة
نقية ، مصقولة ، خالية من الشوائب ، بريئة من التكلف ،
ويقول القدماء إنه كان عاكفاً على تهذيب شعره وتنخل ألفاظه
وصيانة ديباجته من عيوب التعبير أو سقطات اللغة أو ضحالة
المعاني وركاكة الصور وابتذالها . فجاء شعره - على كثرت -
مستوياً ، متماثل القمم والمرتفعات ، معبراً عن حياته المليئة
بالانفعالات والعواطف والمواقف المشحونة ، لذا كثر شعره في
الأنفاسة والفروسية والطموح والتمدح بشرف الآباء والفخر
بأجداده العظام والشكوى والعتاب ، والحب والفرز ،
والبكاء على الأهل والأحبة ، ووصف تقلبات الزمان إلى ذكرى

الحسين في مأساة عاشوراء ، إلى عاطفة الصداقة فيما كان بينه وبين أصدقائه من الإخوانيات العامة الحارة .

ويكفيه فخراً ، أنه من بين القلة القليلة من شعرائنا العرب ، الذين لم يقبلوا المال من أحد ، ولا اتخذوا شعراً وسيلة أو أداة للتكسب المادي ، فكانت علاقاته مع الخلفاء والملوك والأمراء علاقات ود وصداقة ، واحترام متبادل ، لذا فقد عرفت له عندهم حرمة وهيبة ، ولقبوه بالرضي ذي الحسينين .

والآن إلى قصيدته الرقيقة : يا ظبية البان .

يا ظبية البان

يا ظبيّة البان ، ترعى في خفاقه
ليهنك اليوم أن القلب مرعاك^(١)
الماء عندك مبدول لشاربه
وليس يرويك إلا مدممي الباكي

(١) البان : شجر معتدل القوام ورقه لين كالصفوف ، واحدته البانة ، ليهنك : ليهنك ، خفت الهزة .

هبت لنا من رباح « الغور » رائحة
بعد الرقاد عرفناها بريثا^(١)
ثم اثلينا إذا ما هزنا طرب
على الرحال ، تعلنا بذكراك
سهم أصاب ، وراميه بندي سلم ،
من بالمراق ، لقد أبعدت مرماك^(٢)
حكك لحاظك ما في الرثم من ملح
يوم اللقاء ، وكان الفضل للحاكي^(٣)
كان طرفك يوم « الجزع » يخبرنا
بما طوى عنك من أسماء قتلاك^(٤)
أنت النعم لقلبي والعذاب له
فما أمرك في قلبي وأحلاك
عندي رسائل شوقٍ لست أذكرها
لولا الرقيب لقد بلغتها فاك

-
- (١) الغور : اسم موضع ، أو هو المنخفض من الأرض . الريا :
الريح الطيبة .
(٢) بندي سلم : اسم موضع .
(٣) اللعاط : جمع لحظ ، باطن العين . الرثم : الظبي الأبيض .
حكك : أشبهت .
(٤) طرفك : عينك . الجزع : اسم موضع .

وعد لعينيك عندي ما وفيت به
 يا قرب ما كذبت عيني عيناك
 سقى مني وليالي الخيف ما شربت
 من الغمام وحبها وحياك (١)
 إذ يلتقي كل ذي دين .. وماطله
 منا ، ويجمع المشكوك والشاكي (٢)
 لما غدا السرب يعطو بين أرحلنا
 ما كان فيه غريم القلب إلاك (٣)
 هامت بك العين لم تتبع سواك هوى
 من أعم العين أن القلب يهواك
 حق دنا البين ما أحييت من كد
 قتلى هواك ، ولا فاديت أسراك
 يا حبذا نفحة مرّت بفيك لنا
 ونطفة غمت فيها ثناباك (٤)

(١) الخيف : راد بين منى ومكة .

(٢) ماطله : مسوّقه ومؤجله .

(٣) السرب : سرب الغباء ، أي الحسان . يعطو : يرفع رأسه ويديه . الأرحل : جمع رحل ، ما يوضع على الناقة ليمتطيه السافر .

(٤) النطفة : الماء الصافي أو الرحيق الرضاب .

وحبذا وقفة والركب معتقل
على رىّ رخذت فيه مطاياك^(١)
لو كانت اللمة السوداء من معدّدي
يوم النميم ، لما أفلت^(٢) أشراكي

-
- (١) معتقل : لا يستطيع السير لأث مطايا معتقلة ، أي مشددة الرأس إلى الذراع . رخذت : سارت .
(٢) اللمة السوداء : الشعر الأسود ، كناية عن الشباب . النميم : راد بين الحرمين قرب مكة .
يقول : لو كان الشباب عدّة لي لما تركتك تفلتين من حبالي .

اليتيمة

لدوقلسة المنبجي

طالعتها لأول مرة في أحد مجلدات مجلة « الحديقة » التي
كان يصدرها منذ أكثر من نصف قرن العالم الراحل 'محب' الدين
الخطيب .. وقد صُدّرت بهذه الكلمات : « القصيدة اليتيمة »
نقلها العلامة الشيخ عبد العزيز الميمني الراجكوتي من آخر
نسخة مخطوطة من المقامات توجد في الهند . . واستوقفتني
القصيدة ، ثم ما لبثت أن مَلَكْتُ عليّ نفسي ، وإن كان السؤال
الملح وقتها عليّ : من هو دوقلة المنبجي هذا ، الذي تنسب
إليه القصيدة اليتيمة ؟

وظللت بعد ذلك سنوات متصلة ، تطالعني - بين الحين
والحين - أبيات من اليتيمة أجدها منتثرة هنا وهناك في أمهات
كتب الأدب ، وغتارات الشعر العربي ، لكن العثور عليها
كاملة ظل شيئاً يشبه المستحيل ، خاصة - كما عرفت فيما بعد -

أن بالقصيدة مقاطع أضيفت إليها ، بفعل الروايات والنقل ،
بها ما يחדش الحياء ويخرج الذوق العام ..

لكن الذي لم يختلف عليه اثنان ، أن القصيدة من عيون
تراثنا الشعري .. وأن القدماء لما أدركوا جمالها وروعيتها
وأصالتها وتفردها أطلقوا عليها اسم « اليتيمة » أي التي
لا شبيه لها ولا نظير .

والطريف أن اليتيمة ظلت عصوراً طويلة مجهولة النسب ،
لا يُعرف اسم شاعرها الحقيقي .

فن قائل هو الشاعر العباسي علي بن جبلة ، الذي قتله
المأمون في أول القرن الثاني الهجري ..

ومن قائل : هو أبو نواس ، الشاعر العباسي الكبير ، الذي
اشتهر بالخرجات والهجون ، وأصحاب هذا الرأي يؤكدون أن
القصيدة تحمل بصمات فنه وشاعريته .

ومن قائل : بل هو درفلة المنبجي ، وهو شاعر لم تتحدث
عنه كتب الأدب ، ولا يُعرف له شعرٌ سواها . أما « منبج »
هذه التي ينتسب إليها الشعر فهي بلدة بالشام نشأ فيها من
الشعراء : أبو تمام والبحتري وأبو فراس الحمداني وغيرهم من
أعلام الشعر والبيان . والطريف أيضاً أنهم اختلفوا في اسم
القصيدة :

فهي « اليتيمة » ، وهي « هند » ، وهي « دعد » ..

ثم جاء هذا الكشف عن مصدر القصيدة وحقيقة نسبتها وأصلها الكامل — كما نشرته مجلة الحديقة — ليحسم الأمر ، وينسب القصيدة إلى صاحبها ..

وهكذا لم تعد « اليتيمة » يتيمة النسب !

و « اليتيمة » تنطق بشاعرية شاعر أصيل مقتدر ، تفنن في وصف محبوبته « دعد » ، فلم يترك شيئاً منها ، إلا وقد وصفه أدق وصف وأجمل ، وكأنه يقدم صورة للجمال كما تعشقه العربي القديم ، وحتى ليخيل لقارئ القصيدة أنه يتأمل لوحة فائنة أبدعتها ريشة رسام مبدع .

رسم الشاعر في لوحته الفاتنة جسم محبوبته ، ووجهها ، وشعرها ، وجبينها ، وجيدها ، وزندها ، ومعصمها ، وعذارها ، وكل نبضة من نبضاتها ، ولم يفتش أن يصف زهوله وإطراقه أمام هذا المشهد الرائع من مشاهد الحب والجمال ، وأن يتحدث عن أنفته وعزته وكبريائه حين يعز عليه الوصال وكأنه بذلك يقدم لنا مثل الفارس العربي النبيل يذوب في هواء صباية ووجداً ، ولكنه يترفع عزّة وإباء وشموخاً ، ويحجل نفسه عن ارتكاب الدنايا والصفائر .

والقصيدة — رغم التزامها في بنائها العام للأنهج التقليدي

للقصيدة العربية بدءاً بالوقوف على الأطلال ثم الحديث عن موضوع الحب وصفاً وشكوى ووجداً ، ثم انتهساءً بالفخر بالنفس وتأكيد معنى العزة والنخوة — إلا أن ما يلمسكب عليها من ماء الشعر يجعلها بالغة الرقة والعذوبة ، ويجعل لها مذاقاً خاصاً في وجدان المتلقي ينأى به عن قصورها حينئذ هذا البناء التقليدي ، بما تكشف عنه القصيدة من تصورات رغبة للخيال والحس العربي العاشق .

والآن إلى اليتيمة :

وقوفٌ على الأطلال :

هل بالطلول لسائلٍ ردُّ
أم هل لها بتكلمٍ عهدٌ (١)
درّس الجديدُ ، جديدٌ معدها
فكأننا هي ربطة جرد (٢)

(١) الطلول : جمع طل ، هي ما يتخلف من الآثار والديار بعد زوالها .

(٢) درس : زال وأحى . معدها : ما عهد غيبها من آثار الحياة والاقامة . ربطة جرد : أي مُلأمة بالية أو ثوب مهترى .

من طول ما تبكي الغيوم على
 عرصاتهما ، ويقهقه الرعد^(١)
 وتلث^(٢) سارية^(٣) وغادية^(٤)
 ويكر^(٥) نحس^(٦) خلفه سعد^(٧)
 تلقاء^(٨) شامية^(٩) يافية^(١٠)
 لها بمور^(١١) ترايبها^(١٢) سرود^(١٣)
 فكست^(١٤) بواطنها ظواهرها
 نوراً^(١٥) كأن زهاء^(١٦) برد^(١٧)
 فوقفت^(١٨) أسأله^(١٩) ، وليس بها
 إلا^(٢٠) المها^(٢١) ونفائق^(٢٢) ريد^(٢٣)
 فتبادرت^(٢٤) درر^(٢٥) الشئون^(٢٦) على
 خدتي^(٢٧) كما يتسافر^(٢٨) العقد^(٢٩)

-
- (١) عرصاتهما : ساحاتها .
 (٢) تلث : تدرم وتستمر أياماً . السارية والغادية : السحب المطرة .
 (٣) مور ترايبها : إثارة ترايبها وتحريكه بشدة . سرود : تتابع .
 الشامية واليانية : أسماء للسحاب المطر بحسب اتجاه قدره .
 (٤) الزهاء : النضرة . البرد : الثوب الخطط .
 (٥) المها : جمع مهاة ، وهي البقرة الوحشية . النفائق : جمع نفنق ؛
 ذكر النعام . ريد : لونها يختلط فيه السواد بكثرة .
 (٦) درر : جمع درة ؛ ما يدر من المطر والبن ، والمراد هنا بدرر
 الشئون : دموع العينين التهمرة .

صورة وصفية للمحبوبة :

لنفي على « دعد » وما حفلت
بالأبحر تلهفي « دعد »
بيضاء قد لبس الأديم بها
« الحسن » فهو جليدها جلد^(١)
ويزين فوديتها إذا حسرت
ضافي القدائر فاحم جعد^(٢)
فالوجه مثل الصبح مبيض
والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا
والضد يظهر حسنه الضد
وكأنها وسنتى إذا نظرت
أو مدنف لما يفيق بعد^(٣)
بفتور عين ما بها ومد
وبها مدارى الأعين الرمد

(١) الأديم : الجلد .

(٢) الفودان : جانباً الرأس بما يلي الأذن . جعد : متجمع كثيف
والقصود به (الشعر) .

(٣) ومنى : أخذها النوم الشديد . المدنف : من ثقل عليه المرض .

وتُزِينُكَ عَرْنِينًا يَزِينُهُ
 . شَحْمٌ ، وَخَدًّا لَوْنُهُ الْوَرْدُ (١)
 وَتَجِيلُ مِسْوَاكَ الْأَرَاكَ عَلَى
 رَتْلِ كَانَ رِضَابُهُ الشَّهْدُ (٢)
 وَالصَّدْرُ مِنْهَا قَدْ يَزِينُهُ
 نَهْدٌ كَحَقِّ الْعَاجِ إِذْ يَبْدُو
 وَالْمَعْصَانِ ، فَمَا يُبْرِى لَهَا
 مِنْ نَعْمَةٍ وَبِضَافَةٍ زَنْدٍ
 وَلَهَا بَنَانٌ لَوْ أَرَدْتَ لَهُ
 عَقْدًا بِكَفِّكَ أَمَكْنَ الْعَقْدُ
 وَكَأَنَّا سَقَيْتُ تَرَائِبَهَا
 وَالنَّحْرُ مَاءَ الْوَرْدِ إِذْ تَبْدُو (٣)
 وَبِصَدْرِهَا حَقَّانِ خَلَّتْهَا
 كَافُورَتَيْنِ عَلَامَا نَدَى (٤)

-
- (١) العرنين : الأنف . الشحم : الترفع والكبرياء .
 (٢) الرتل : اللحم الجميل الأسنان في بياض ولعنان . الرضاب :
 المقصود به ماء النعم .
 (٣) الترائب : عظام الصدر . النحر : أعلى الصدر .
 (٤) الندى : عود طيب الرائحة يتبخر به .

والبطن مطوي كما طويت
 بيض الرِّياط يصونها المثلد^(١)
 وبخصرها هيف يزينه
 فإذا تنوء يكاد يتقد^(٢)
 ولها هن راب مجسته
 وعز المسالك ، حشوه وقند
 فإذا طعننت طعننت في لبد
 وإذا نزعت يكاد ينسد^(٣)
 والتف فخذاهما ، وفوقها
 كفل - يجاذب خصرها - نهد^(٤)
 فقيامها مثنى إذا نهضت
 من ثقله ، وقعودها فرد
 والساق خروعة منعمة
 عبلت فطوق الحجل منسد^(٥)

-
- (١) الرِّياط: جمع رِبطة وهي الخلاء . المثلد: جمع ملدء : امرأة الناعمة .
 (٢) الهيف : ضمور البطن ورقة الخاصرتين . تنوء : تنهض يجهد .
 ومشقة - تسلط . يتقد : ينكسر .
 (٣) اللبد : الشعر الكثيف المتجمع . وهذا البيت والبيت السابق
 يقال لإنها دخيلان على القصيدة .
 (٤) الكفل المعجز أو الردف . نهد : البارز المرتفع .
 (٥) خروعة : الطريقة الناعمة . عبلت : اكتنفت وضخمت .

والكعب أدرم لا يبين له
 حجج^(١) ، وليس لرأسه تحد^(٢)
 ومشت على قدمين تُخَصَّرُ
 والتفتتا ، فتكامل القد^(٣)
 ما عاها طول ولا قِصَر
 في خلقها ، فقوامها قصد^(٤)

الشكوى من الهجر والصنود :

إن لم يكن وصل لديك لنا
 يشفي الصبابة ، فليكن وعد^(٥)
 قد كان أوردق وصلكم زمناً
 قذوى الوصال وأوردق الصد^(٥)
 لله أشواقي إذا نزحت
 دار بنا ، وطواكمو البعد

(١) أدرم : عظمه لا يبين من كثرة ألمه اللين والألمس .

(٢) الحد : القوام .

(٣) قصد : سوي معتدل ليس به طول أو قصر .

(٤) الصبابة : شدة الوجد والهيام .

(٥) أوردق وصلكم : طاب وصالكم رواتي وأبتغ .

إن تتهمى فتهامة وطني
أو تنجدي، يكن الهوى نجداً^(١)
وزعمت أنك تضرين لنا
وداً ، فهلاً ينفع الود !
وإذا الحب شكا الصدود ولم
يعطف عليه فقتله عمد
نختصها بالود ، وهي على
ما لا تحب ، فهكذا الوجد !

فخر وكبرياء :

أو ما ترى طمري بينهما
رجل ألح بهزله الجد^(٢)
فالسيف يقطع وهو ذو صدأ
والنصل يعثر الهام لا الغمد^(٣)

(١) إن تتهمى أو تنجدي : أن تتسبى إلى تهامة أو نجد .

(٢) طمري : مثني طمر، وهو الثوب البالي .

(٣) الهام : جمع هامة ، الرأس .

هل تنفعن السيف حليته
 يوم الجلاء إذا نبا الحد (١)
 ولقد علتُ بأنني رجسٌ
 في الصالحاتِ أروحُ أو أغدو
 سلمٌ على الأدنى ومرحمةٌ
 وعلى الحوادثِ مادنٌ كجلد (٢)
 متجلببٌ ثوب العفاف وقد
 غفل الرقيب وأمكن الورد (٣)
 ومجانِبٌ فعل القبيح ، وقد
 وصل الحبيب ، وساعد السعد
 منعَ المطامع أن تثلثني
 أنتي لِمَعُولِهَا صفاً صلد (٤)
 فأروحُ حرّاً من مذلتها
 والحرُّ حين يطعمها عبداً

(١) نبا : راغ ولم يصب .

(٢) مادن : ساكن . جلد : مبرور قوي .

(٣) الورد : الوصال والادتواء من الحب .

(٤) تثلثني : تخرجني وتعييني . صفا : جمع صفاة : الصخرة أو الحجر الضخم . الصلد : الصلب القوي .

آليت أمدح 'مقرفاً' أبداً
 يبقى المديح وينفد الرقاد^(١)
 ميهبات ، يابى ذاك لي سلفاً
 خمدوا ولم يخدم لهم مجد
 والجدة كئيدة والبشون هم
 فزكا البنون وأنجب الجدة^(٢)
 فلئن قفوت جميل فعلهم
 بدميم فعلي ، إنني وغد^(٣)
 أجمل إذا حاولت في طلب
 فالجدة يُفني عنك لا الجدة^(٤)

نداء أخير :

ليكن لديك لسان فرج
 أو لم يكن .. فليحسن الرد !

(١) مقرفاً : غنياً ، كثير اقتناء المال . الرد : السطاء .

(٢) ذكا : أفلح ونجح .

(٣) قفوت : تيمت .

(٤) أجمل : اعتدل ولا تقروط . الجدة : الحظ .

قمر في بغداد

لابن زريق البغدادي

وهذا شاعرٌ قتلته طموحه ، يعرفه دارسو الأدب وُحيثوه ،
لكنهم لا يعرفون له غير هذا الأثر الشعري الفريد يتناقضه
الرواة ، وتُعنى به دواوين الشعر العربي . فإذا ما تساءلنا
عن الشاعر ، وعن سائر شعره فلن نظفر من بين ثنايا الصفحات
بغير بضعة سطور تحكي لنا مأساة الشاعر العباسي ابن زريق
البغدادي الذي ارتحل عن موطنه الأصلي في بغداد قاصداً بلاد
الأندلس ، علته يجد فيها من لين العيش وسعة الرزق ما يُعوضه
عن فقره ، ويترك الشاعر في بغداد زوجةً يحبها وتحبّه كل
الحب ، ويخلص لها ويخلص له كل الاخلاص ، من أجلها يهاجر
ويسافر ويغترّب . وفي الأندلس - كما تقول لنا الروايات
والأخبار المتناثرة - يجاهد الشاعر ويكافح من أجل تحقيق
الحلم ، لكنّ التوفيق لا يصاحبه ، والحظ لا يتسم له ، فهناك
يمرض ، ويشتد به المرض ، ثم تكون نهايته في الغربة .

ويضيف الرواة 'بعثاً جديداً للأساسة' ، فيقولون إن هذه القصيدة التي لا يُعرف له شعر سواها وجدت معه عند وفاته سنة أربعمائة وعشرين من الهجرة ، يخاطب فيها زوجته ، ويؤكد لها حبه حتى الرمق الأخير من حياته ، ويترك لنا - نحن قراءه من بعده - 'خلاصة' أمينة لتجربته مع الغربة والرحيل ، من أجل الرزق ، وفي سبيل زوجته التي نصحته بعدم الرحيل فلم يستمع إليها ، ثم هو في ختام قصيدته نادم - حيث لم يعد ينفع الندم أو يجدي - متصدع القلب من لوعة وأسى ، حيث لا أنيس ولا رفيق ولا معين .

والتأمل في قصيدة ابن زريق البغدادي لا بدَّ له أن يكتشف على الفور رقة التعبير فيها ، وصدق العاطفة ، وحرارة التجربة . فهي تتمُّ عن أصالة شاعر مطبوع له لغته الشعرية المتفردة ، وخياله الشعري الوثاب ، وصياغته البليغة المزهفة ، ونفسه الشعري الممتد . والغريب ألا يكون لابن زريق غير هذه القصيدة ، مثله كمثل دوقلة المنبجي الذي لم تحفظ له كتب تراثنا الشعري غير قصيدته «اليتيمة» .. وهكذا استحقَّ الشاعران فضل البقاء والذكر - في ذاكرة الشعر العربي كله - بقصيدة واحدة لكل منهما .. وبالمقابل ، ما أكثر الشعراء الذين لا تعيهم ذاكرتنا ، بالرغم من أنهم سودوا مئات الصفحات وتركوا عشرات القصائد وزحموا الدواوين والمكتبات .

يستهلّ ابن زريق قصيدته بمخاطبة زوجته ، يناشدها ألا
تعذله أو تلومه ، فقد أثر فيه اللوم وآذاه ، وأضرّ به بدلاً
من أن ينفعه ، إنه هنا يبسط بين يديها أسباب رحيله عنها
وتركه لها طمعاً في الرزق الفسيح والعيش الهانيء الوثير ،
وسرعان ما يعلن عن ندمه لأنّ ما أمله لم يتحقق ، وما رجاءه
من رزق وفير لم يتح له ..

ثم يلتفت ابن زريق التفاتةً محبةً عاشق إلى بفسداد ،
حيث زوجته التي تركها دون أن يستمع إلى نصحتها ، إنها
ملكته التي أضاعها ولم يحسن تدبيرها وعرشه الذي خلع عنه ..
وفي ختام القصيدة ، يصف ابن زريق - في تعبير صاف
مؤثر ونسيج شعري محكم - واقع حاله في الغربة ، بين
الأسى واللوعة ، والألم والندم ، وهنا ينفس المجال التأمل ،
وينطلق اللسان بالحكمة التي أنضجتها التجربة ، ويشرق القلب
بالدموع .

* * *

يقول ابن زريق البغدادي :

رفقاً به بدلاً من لومه :

لا تعذليه ، فإن العذل يولعه

قد قلت حقاً ، ولكن ليس يسمعه^(١)

(١) لا تعذليه : لا تلومه .

جاوزتِ في لومه حداً أضرب به
 من حيث قدرت أن اللوم ينفعه
 فاستعملي الرفق في تأنيبه ، بدلاً
 من عدله ، فهو مضى القلب موجهه
 قد كان مضطرباً بالخطب يحمله
 فضيقت بخطوب الدهر أضلعه
 يكفيه من لوعة التشتيت أن له
 من النوى كل يوم ما يروعه (١)
 ما آت من سفر إلا وأزعجه
 رأي إلى سفره بالعزم يزعمه (٢)
 كأنما هو في رحلٍ ومرتحل
 موكل بفضاء الله يذرعه (٣)

لماذا رحل :

إن الزمان أراه في الرحيل غنى
 ولو إلى السد أضحى وهو يزعمه (٤)

(١) النوى : الفراق والبهما .

(٢) آت : رجع .

(٣) موكل : معنى ومثول . يذرعه : يقطعه . الحل والمرتحل : الإقامة والرحيل .

(٤) يزعمه : يعتزمه ويقتريه .

وما مجاهدة الإنسان توصله
 رزقاً ، ولا دعة الإنسان تقطعه (١)
 قد وزع الله بين الخلق رزقهم
 لم يخلق الله من خلق يضيعه
 لكنهم كلفوا حرصاً ، فلست ترى
 مسترزقاً ، وسوى الغايات تقنعه (٢)
 والحرص في الرزق - والأرزاق قد قسمت -
 بغي ، ألا إن بغي المرء يصرعه
 والدهر يغطي الفق - من حيث يمنعه -
 إرثاً ، ويمنعه من حيث يطمعه

كيف كان الوداع :

أستودعُ الله في بغداد لي قرأ
 «بالكرخ» من فلك الأزرار مطلقه (٣)

(١) المجاهدة : مواجهة المصائب والشدائد . الدعة : الأمان والسكون والاطمئنان .

(٢) كلفوا حرصاً : أطعمهم الحرص والرغبة في المزيد .

(٣) الكرخ : اسم موضع في بغداد . من فلك الأزرار : من بين ثنايا الثوب الذي يرتديه .

ودّعني وودّني لو يودّني
 صفو الحياة ، وأني لا أودّعه
 وكم تشبّث بي يوم الرحيل ضحى
 وأدمعي مستهلات وأدمعه (١)
 لا أكذب الله ، ثوب الصبر 'منخرق'
 عنّي بفرقته ، لكن أرقّعه
 إني أوسع عذري في جنائته
 بالبين عنه ، وجُرّمي لا يوسّعه (٢)
 رزقت 'ملكاً' فلم أحسن سياسته
 وكلُّ من لا يسوس الملك يخلعه
 ومن غدا لابساً ثوب النعيم بلا
 شكرٍ عليه ، فإن الله ينزعه

غربة وندم :

اعتضتُ من وجه خلّتي - بعد فرقته -
 كأساً أجرّع منها ما أجرّعه (٣)

(١) تشبّث : استمسك . مستهلات : سيالة متدفقة .

(٢) البين : البعد . جرّمي : ذنبي .

(٣) اعتضت : استقبلت .

كم قائل لي : ذقت البين ، قلت له :
 الذنبُ والله ذنبي لست أدفعه
 ألا أقت فكان الرشد أجمه ؟
 لو أنني يوم بان الرشد أقبعه
 إلي لأقطع أيامي ، وأنفدها
 بحسرة منه في قلبي 'تقطعه' (١)
 بمن إذا هجع النوم بت له
 - بلوعة منه - ليلى ، لست أهجمه (٢)
 لا يطمئن لجنبي مضجع ، وكذا
 لا يطمئن له منذ ربت مضجعه (٣)
 ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني
 به ، ولا أن لي الأيام تفجعه
 حتى جرى البين فيما بيننا بيد
 عسراء ، تمنعني حظي وتمنعه (٤)
 قد كنت من ريب دهري جازعاً فرقاً
 فلم أوق الذي قد كنت أحزعه (٥)

-
- (١) أنفدها : أمضيها وأنهيها .
 (٢) هجع : رقد وآوى إلى النوم .
 (٣) بليت : غبت وارتحلت .
 (٤) يد عسراء : يد باطشة قاهرة (من العسر والضيق والشدة) .
 (٥) ريب الدهر : صروفه وأحداثه المفزعة . فرقاً : خائفاً متوجساً .

حنين إلى العهد القديم :

يا الله يا منزل العيش الذي درست
آثاره ، وعفت مذ بنت أربعه (١)
هل الزمان مُعيد فيك لذتنا
أم الليالي التي أمضته تُرجعه
في ذمة الله من أصبحت منزله
وجاد غيث على مفناك يبرعه (٢)
من عنده لي عهد لا يضيئه
كما له عهد صدق لا أضيئه
ومن يصدع قلبي ذكره ، وإذا
جرى على قلبه ذكرى يصدعه (٣)
لأصبرن* لدمري لا يمتعني
به ، ولا بي في حال يمتعه

(١) درست : ذلت وأبحت . أربع : جمع ربع : الدار أو مكان الإقامة أو ما حولها .

(٢) الغيث : المطر الكثير المنافع . المغنى : المنزل الذي غني به أهله . يبرعه : يخلصه وينضره .

(٣) يصدعه : يهده ويؤزقه .

علماً بأن اصطباري 'مُعَبِّ' فرجاً
فأَضِيقُ الأمر إن فكَّرت أوسعهُ (١)
عسى الليالي التي أضنت بفرقتنا
جسمي ، ستجمعني يوماً وتجمعه
وإن ثقل أحداً منّا منيته
فما الذي بقضاء الله يصنعه ! (٢)

* * *

(١) مُعَبِّ فرجاً : متبع فرجاً ويسراً .
(٢) ثقل : تهلك . النية : الموت .

مجلس الحبيب

لصفي السديني الحلبي

يأتينا شعره في عصر المخطاط الدولة العربية ، والشعر
العربي ، قَبَساً متقدماً بالشاعرية الأصيلة ، وصوقاً فريد التعبير ،
رائق الأنغام ، صافي الديباجة ، قوي السبك ، فيعود الأمل
من جديد في قافلة الشعر العربي .. وتصدح القوافي على وتر
هذا الشاعر العراقي الأصل والنشأة ، المصري الروح والإقامة ،
صفي الدين الحلبي ..

هو أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا بن نصر الطائي ، ولد
في مدينة الحيلة بالمراق سنة ست مائة وسبع وسبعين من الهجرة ،
وإليها نسب ، ومات في بغداد سنة سبعمائة واثنين وخمسين
من الهجرة ..

يقول عنه الرواة إنه أولع بنظم الشعر منذ حداثة سنه
— على غير عادة شعراء عصره وأهل زمانه — عاهد نفسه ألا

يمدح كريماً وألاً يهجو لثيماً ، ملتزماً بقوله إنه لا ينظم الشعر
إلا فيما أوجب له ذكراً ..

ويطالعنا صفي الدين الحلي بشخصية طريفة فائقة ، هي
شخصية الفارس الشجاع المقاتل ، يقتحم لمهالك والمخاطر ،
مقدماً غير مبال أو هيب أو متردد .. تقع الفتنة في بلده
« الحيلة » بين أبناء أسرة هولاء بسبب الصراع على العرش ،
فيخوض صفي الدين غمارها غير هيب ولا وجل ، ويظهر
بطولة وشجاعة ينطق بها شعره ..

وفي ذلك العصر ، الذي سقط المجد والشرف العربي تحت
أقدام هولاء كوا ، وخربت بغداد ، عاصمة الوطن العربي ،
واحتل العراق ، نجد صفي الدين عربياً صادق العروبة ، يجهر
بها في شعره ، ويتحمس دوماً لقومه ، ويبث فيهم روح الأنفة
والطموح والعزيمة والتمرد ، وهي مزجة لا نجدها عند شاعر
سواه من شعراء ذلك العهد ، الذين كانوا يتسترون ويتوارون
خوفاً وذعراً ورغبة في اتقاء الفتن والأخطار والحروب .

ثم يرحل صفي الدين إلى آل « أرتق » ملوك ديار بكر بن
وائل ، فيمدح الملك المنصور نجم الدين أبا الفتح غازي بتسع
وعشرين قصيدة سماها « درر النحور في مدائح الملك المنصور »
وهي المعروفة - في ديوان الشعر العربي - بالأرتقيات ، ثم
يتصل بالسلطان المؤيد عماد الدين اسماعيل ابن الملك الأفضل
أيوب ثم بابنه شمس الدين أبي المكارم ، مادحاً ، مستعناً

للهم ، مصرّاً على إحياء الروح العربية والنخوة العربية
والشعر العربي ..

وتشتد الفتن ، ويضطرب نظام كل شيء ، وبفتقد الأمر
والاطمئنان ، فيرحل صفي الدين إلى مصر ، ويقربه سلطانها
الملك الناصر ، فيمدحه بعدة قصائد سماها المتصوريات .. ثم
يجمع ديوانه في مصر بإشارة من ناصر الدين محمد بن قلاوون
رئيس وزراء السلطان الناصر .

ويتأثر الشاعر تأثيراً عميقاً بإقامته في مصر ، لقد هدأت
روحه زصفت لغته الشعرية ورقّت وأخذت تميل إلى السلاسة
والعذوبة ، وأصبح الفارس العنيد الجامح عاشقاً رقيقاً مرهفاً ،
تفتك به محاجر العيون وسهام الألحاظ وهيف الحصور ، وتسبب
المجالس الناعمة ، ومظاهر الطبيعة الغناء ، ويفتن في وصف
مجالس اللهو والأنس ، ويأسر القلوب بما أبدع من ربيعاته
وزهرياته الجميلة ، التي يقول في إحداها :

ورد الربيعُ فرحياً بروده

وبنور بهجته ونور وروده

وبحسن منظره وطيب قسيه

وأنيسق ملبه ووشى بروده

فصل إذا افتخر الزمان ، فإنه

إنسان مقلته وبيت قصيده

وغزلياته الرقيقة التي يقول في إحداها :
عبث النسيم بقـــــــسده فتأوذا
وسرى الحياءُ بخدّه فتوردا
رشأ تغرّد فيه قلبي بالهوى
لما غدا يحمله متفردا
مغرى بإخلاف المواعد في الهوى
يا ليتك جعل القطيعة موعدا
حسن الفصون إذا اكتست أوراقها
ونراه أحسن ما يكون مجردا

* * *

والتأمل في شعر صفي الدين الحلي يلمس على الفور ولعه
بالبديع والمحسنات اللفظية والمعنوية التي شاعت في زمانه
لكنها ، على كثرتها ، لا تفسد ماء شعره وروثق بهانه
فشاعريته الخصبه واقتداره اللعوي وحسه المرمف وذوقه
الرفيع تغلب جميعها على هذه المحسنات والبديعيات ، ولا تجعل
القارىء يصدم كثيراً بتكلف أو مفالة أو تكرار أو جفاف
في التعبير ونحوه في الصياغة .

ولعل القصيدة التي نطالعها له الآن ، أن تكون فريدة
الطابع في ديوان شعرنا العربي كله ، فهي قصيدة تدور كلها

حول وصف مجلس أنيق استمتع فيه الشاعر بحبيبه ، وافتنّ في
تصوير كل ما أحاط بها من مشاهد الطبيعة والسحر والجمال :
الجمال الطبيعي والجمال الإنساني معاً ، افتناناً لا يدع زيادة
لستزيد ، في عبارة سهلة ممتعة ، وخیال طليق مخلق ،
وموسيقى عذبة متراقصة ، كما تكشف القصيدة ، وهي طويلة ،
إن لم تكن من أطول قصائده ، تكشف عن عمق عاطفته
الشبوية ، وحبّه الشاعر الملتهب ، ووجدّه المبرّح ، الذي صهر
كبرياء الفارس الشجاع وأحاطها زفرات عاشق مستهام .

يقول صفي الدين الحلي في قصيدته : « مجلس الحبيب » :

أذاب التبر في صافي اللجين
رشاً بالراح مخضوب^(١) اليدین
وطاف على السحاب بكأس راح
فطاقت مقلناه بآخرین
رخيم من بني الأعراب طفل
يجاذب خصره جبلي^٢ حنین

(١) التبر : الذهب . اللجين : الفضة . رشاً : غزال . مخضوب
مصبوغ بالخضاب (الحناء) . الراح : الحمر .

يُبدل نطقه ضاداً بدال
ويشرك . عجمة قافاً بفين
يطوف على الرفاق من الحُمَيَّا
ومن خمر الرضاب بمُسْكِرِينَ^(١)
إذا يحلو الحميَّا والحميَّا
شهدنا الجمع بين النيران^(٢)
وآخر من بني الأعراب حفت
جيوش الحسن منه بعارضين
إلى عليه تنسب المنايا
كما انتسب الرماح إلى ردين^(٣)
تلاحظ سوسن الخدين منه
فيبدلها الحياء بوردين
وجلسنا الأنيق تضيء فيه
أواني الرّاح من ورق وعين
فأطلقنا قم الإبريق فيه
وبات الزُّقَّ مغلول اليدين^(٤)

-
- (١) الحميّا : سورة الحمر وشدتها . الرضاب : وحقيق قم المحبوب .
(٢) النيران : الكوكبان . يفصد بهما : الحمر ووجه المحبوبة .
(٣) المنايا : جمع منية ، الموت . ردين : بسك كانت تشتهر بصناعة
الرماح ، يقال : رمح رديني .
(٤) الزُّقَّ : (بضم الزاي) الحمر ، وبكسرهما : وعاء من الجلد يوضع
فيه الماء أو الحمر .

وشعنتنا شبيه سنات تهر
 توقد في أكف الساقبين
 إذا ملء الزجاج بها وطارت
 حواشي نورها في المشرقين
 عجبت لبدر كأس صار شمساً
 يحف من السقاة بكوكبين^(١)
 وقد صاغت يد الأزهار تاجاً
 على الأغصان فوق الجانبين
 بردي كالمداهن في عقيق
 وأقداح كالأزرار اللجين^(٢)
 وقد جمعت لي اللذات لما
 دنت منها قطوف الجنّتين
 وما أنا من هوى الفيحاء خالٍ
 ولا ممن أحب قضيت ديني^(٣)

(١) يحف : يحامل .

(٢) المداهن : جمع دهن ، وهي قارورة الدهن ، المتيق : الخرز الأحمر .

(٣) الفيحاء : اسم لدمشق (وقد كان الشاعر دائم التعلل بين العراق والشام رمصاً مشتغلاً بالتجارة) .

قللك حبه قلبي وصدري
 فأصبح سائراً في الخافقين
 وأعوز مع دنوبي منه صبري
 فكيف يكون صبري بعد بين^(١)
 إذا ما رام أن يسلوه قلبي
 تمثل شخصه تلقاء عيني^(٢)
 ألا يا نسمة « السعدي » كوني
 رسولا بين من أهوى وبيني
 ويا نشر « الصبّا » بلغ سلامي
 إلى الفيحاء بين القلمتين^(٣)
 وحي الجامعين وجانيهما
 فقد كانا لشلي جامعين
 وقل لمعدي هل من نِجَازٍ
 لو عدي سالفك السالفين^(٤)

(١) البين : الفراق والسعاد . أعوز : تغدّر وامتنع .

(٢) تلقاء عيني : أمام عيني .

(٣) النشر : الريح الطيبة ، الصبّا : ريح ناعمة تهب من الشرق .

(٤) نِجَاز : إنجاز وتحقيق .

سبيك كانت مقتولا بظلم
 وأدت ظلمتي وجلبت حيني (١)
 وهبتك في الهوى روعي بوعد
 وبعثك عامداً نقداً بدين
 وجشت وفي يدي ، كفي وسيقي
 فكيف جعلتها 'خفي' حنين (٢)
 ولم صيرت بعدك قيد قلبي
 وكان جمال وجهك قيد عيني ؟
 فصرنا نشبه النسرين بعداً
 وكننا ألفة كالفرقدين (٣)
 علمت بأن وعدك صار ميثاقاً
 لزعجري مقلتيك بصارمين (٤)

-
- (١) حيني : هلاكي وموتي . سبيك : من اسبه على اسمك .
 (٢) حنين : يضرب به المثل عند العرب في العودة صغر اليدين دون
 أي كسب .
 (٣) الفرقدان : نجهان متجاوران في السماء .
 (٤) ميثاق : كذباً وزوراً .

وقلت وقد رأيتك : خاب سعي
 لكون البدر بين العقربين
 فلم دلّيتني بحبال زور
 ولم أطمعتني بسراب مئثر^(١)
 وهلاً قلت لي قولاً صريحاً
 فكان المتع إحدى راحتين
 عرفتك دون كل الناس ، لما
 نقدتك في الملاحاة نقد عين^(٢)
 وكم قد شاهدتكَ الناس قبلي
 فما نظروك كلهو بعيني
 وطاوعت الفتوة فيك حق
 جعلتك في العلاء برتبتين
 فلما أن خلا المغنى وتبنا
 عُرّةً بالعفاف مؤزّر^(٣)ين

(١) دلّيتني بحبال زور : أطمعتني كذباً في الري والسعي .

(٢) نقدتك : فحمتك واختبرتكَ وميزتك .

(٣) المغنى : المكان أو الدار التي نضمنها مؤزّر : ملفف بإزار وهو كل ما يستر الجسم .

قضينا الحج نضماً . واستلاماً
 ولم نشعر بما في الشعرين .
 أتتهجرتي وتحفظ عهد غيري
 وهل للموت عذرٌ بعد دين
 وقلت : الوعد عند الحرّ دين ،
 فكيف مطلّنتني وجعدت عيني^(١)
 إذا ما جاء محبوبي بذنب
 يسابقه الجمال بشافعين
 وقلت : جعلت كلّ الناس خصمي
 لقد شاهدت إحدى الحاليتين
 فكان الناس قبل هواك صحي
 فهل أبقىئت لي من صاحبين ؟
 بعمادي أطمع الأعداء حق
 وأولئك اليوم خزر الناظرين^(٢)
 وهلا طالعوك بعين سوء
 وأمري نافذ في الدولتين^(٣)

(١) مطلّنتني : سوّقت بوعدي ولم تف به .

(٢) خزر الناظرين : ضيق العينين لأنه ينظر بؤخريها .

(٣) الدولتان : يقصد بهما السيف والقلم أي أنه فارس شاعر .

وما خفقت جناح الجيش . إلا
 رأوني ملء قلب المسكرين
 لئن سكنت إلى « الزوراء » نفسي
 فإن القلب بين محرّكين ^(١)
 سوى يقتادني لديار بكر
 وآخر نحو أرض الجامعين ^(٢)
 سأسرع نحو رأس العين خطوي
 وأقصد لها على رأسي وعيني
 وأسرح في حمى « جيرون » طرفي
 وأربع في رياض النّيرين ^(٣)
 فليس الخطبُ في عيني جليلاً
 إذا قابلته بالأصفرين ^(٤)

-
- (١) الزوراء : مدينة بغداد ؛ سميت بهذا الاسم لازورار قبلتها (بها عوج) . بين محرّكين : بين عاملين قريين يتجاذبان .
 (٢) أرض بكر : العراق . أرض الجامعين : دمشق .
 (٣) جيرون : أحد أبواب دمشق القديمة . أسرح طرفي : أقلب نظري .
 أربع : أشتت بالربيع .
 (٤) الأصفران : هما اللسان والقلب .

فيا مَنْ بان لما بان صبري
وحاربني رقّادُ المقلتين
تنفص فيك ، بالزوراء ، عيشي
ويُدّل زينٌ لذّاتي بشين (١)
وما عيشي بها جَهْناً ، ولكن
رأيت الزين بعدك غير زين (٢)

* * *

(١) الشين : ضد الزين . والزوراء : من أسماء بغداد .

(٢) الجهم : العايس المشوب بالكدر والاعتماد .

[أضحى التنائي]

لابن زيدون

هو أشهر صوت شعري انطلق في ربوع الأندلس ، مفرداً ،
مردداً أحلى القصائد والمقطوعات ، شاعراً ووزيراً وعاشقاً
مستهماً ، وسجيناً وهارباً ومُطارداً ، وساعياً من بلدة إلى
بلدة ومن حاكم إلى حاكم ، وأتيح لشعره من الذبوع ما لم يتح
لغيره من شعراء الأندلس - ذلك هو ذو الوزارتين : الكاتب
الشاعر الرقيق : ابن زيدون عاشق ولادة بنت المستكفي ،
ومجترئ الغرب في رأي الكثرين - تشبهاً له ببحتري
الشرق - في رقة تصبيره وروعة أساليبه وانطلاق خياله وأصالة
فنه وقدرته على التحليق الشعري .

ولد ابن زيدون في قرطبة قرب ختام القرن الرابع
الهجري - سنة ثلاثئة وأربع وتسعين - وبها تنقف وأتقن فن
الأدب : شعره ونثره ؛ ثم اتصل بابن جهور وصار وزيره
وكاتبه الأول حتى كان حبه لولادة ومزاحمة ابن عبدوس له في

حبها ، ومكيدته له عند ابن جهور التي انتهت بسجنه ، ومن السجن يرسل ابن زيدون أناتٍ مستعطفة وقصائد مليئة بالشكوى والمرارة والرجاء ، فلا يلتفت إليه أحد - وينجح ابن زيدون في الفرار من السجن ومغادرة قرطبة ، ثم يعود إليها بعد أن 'توفي' أبو الحزم بن جهور وتولى الحكم ابنه الوليد ، الذي يُعيدُه إلى سابق مكانته ومنزلته ويجعله سفيراً بينه وبين ملوك الطوائف .

لكن الحسد والحقد والدسائس 'تلاحق' ابن زيدون من جديد ، فينقلب عليه الوليد ، ويضطر إلى الفرار من قرطبة ثانية ، ويتنقل في الأندلس ، حتى 'يلقي' عصا التسيار لدى المعتضد حاكم إشبيلية ، ويموت المعتضد ، فيصبح ابن زيدون وزير ابنه 'المعتمد' الذي كان شاعراً ، فيعطي مقام ابن زيدون ، ويتألق نجمه ، وتلتئم مواهبه وتزكو شاعريته ، وتدور بين الأمير ووزيره مطارحات شعرية كثيرة ، ثم يتم للمعتمد الاستيلاء على قرطبة موطن ابن زيدون وينتقل إليها ويجعلها عاصمة ملكه .. وتثور في إشبيلية فتنة طائفية بسبب اليهود فيرسل المعتمد ابن زيدون لتهديتها بما له من منزلة في قلوب الإشبيليين ، لكن الشاعر الذي كان قسداً هرم وشاخ وأنهكه المرض لا يكاد يصل إلى إشبيلية حتى تلعج عليه الحمى ويموت فيها سنة أربعمائة وثلاث وستين من الهجرة .

هذه الحياة العاصفة المتقلبة ، وهذه الأحداث الجسيمة

المتتالية ، صقلت وجدان ابن زيدون وألهبت قدرته الشعرية ، وانعكست في شعره تفتناً في الشكوى والحنين والتأمل والنظر في مصائر الأيام وتقلب الزمان . لكن أبعد ما غوراً في نفسه هو حبه لولادة بنت المستكفي ، التي كانت تقربه حيناً ثم تقرب غريمه ومنافسه ابن عبدوس حيناً آخر . ومن أجل ولادة كتب ابن زيدون نونية الرائعة - أشهر قصائده على الإطلاق - والتي عارضها أحمد شوقي وهو يعاني بدوره مرارة النفي والاعتراق في أسبانيا بنونية التي مطلعها :

يا نائح الطللح أشباه عوادينا

نأسي لواديك أم نشجي لوادينا

والتي جعلت كثيراً من المولعين بالمقارنات يتوقفون عند القصيدتين ، تأملاً وتحليلاً وتقييماً ومقارنة ، كما توقفوا عند السينينتين : سينية البحري وسينية شوقي للسبب نفسه .

يتميز شعر ابن زيدون بالمعذوبة وتوافر النغم الموسيقي والسهولة ، كما يتميز بالانسياب والاسترسال والتدفق في طواعية ويُسّر ، ودون جهد أو إعفات ، شأن الشاعر المطبوع الذي يمتح من معين صاف لا ينضب ، وشعره في الغزل يتميز بالنعومة والبراعة في التصوير ، تصوير خلجات النفس ومكنون أسرارها ، ولوعة الحب الصادق في معاناته ومكابدته ، كما يتميز بمزجه الغزل بوصف الطبيعة ، مما أعطى لقصائده في الحب إطارها الطبيعي المشرق ، وجعلها شبيهة باللوحات

المصوّرة ، الناطقة بالفن الرفيع والشعور الحيّ المرهف ،
والوجد المتقد المبرّح ..

يقول الدارسون لحياة ابن زيدون وشعره ، إنه كتب
نونيته هذه وهو هارب من السجن بعد أن يش من إقناع ابن
جهور بإطلاق سراحه ، وأصبح بعيداً عن مركز الوزارة
المرموق ، وتلفتت يبحث عن ولادة فألقى نفسه بعيداً عنها
أيضاً .. ولقد عادت إليه حرّيته بالهرب من السجن ، ولكنه
ما يزال يعاني غريبتين أو معضلتين ، الوزارة التي يصبو إليها ،
والتي يعتبر عودته إليها تصحيحاً لمسار حياته وتكريماً لذاته ،
ولادة التي بذل لها نفسه وعصارة قلبه وخلاصة شعره والتي
يخشى أن يفقدها إلى الأبد ..

إن الشاعر العاشق يستعطف محبوبته وضالته ويذكرها
بأيامها الماضية ، لعلها ترقّ وتلين ، فيعود ثانية ما كان بينهما
من ريق الوصال ، وأنيس الوداد ..

يقول ابن زيدون مخاطباً ولادة ..

استهلال وتوجع :

أضحى التناهي بديلاً من تدانينا
وثاب عن طير لقيانا تجافينا

ألا، وقد حان صبحُ البينِ، صُبَّحنا
 حينٌ، فقام بنا للحينِ ناعينا (١)
 من مبلغِ الملبسينا بانتراحهمو
 حزننا مع الدهر لا يتلى ويُبلىنا
 أن الزمان الذي ما زال يضحكننا
 أنسا بقرهمو قد عاد 'يبكىنا
 غيظ العدا من تساقينا الهوى، فدعوا
 بأن نغصن فقال الدهرُ آمينا
 فأنحل ما كان معقوداً بأنفسنا
 وانبت ما كان موصولاً بأيدينا (٢)
 وقد نكون وما 'يمتشي تفرقنا
 فاليومَ نحنُ وما يُرجى تلاقينا

شاة الحساد :

يا ليت شعري ، ولم نعتب أعاديكم
 هل نال حظاً من العتبي أعادينا (٣)

(١) الحين : الهلاك . البين : الفراق .

(٢) انبت : انقطع .

(٣) نعتب : رضى ، والعتبي : الرضا .

لم نعتقد بعدمكم إلا الوفاء لكم
رأياً ، ولم نتقلد غيره ديناً
ما حفتنا أن تقرأوا عين ذي حسي
بنا ، ولا أن نسرؤوا كاشعاً فينا (١)
كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه
وقد يشنا فما لليأس يُغرينا

وفاء على العهد :

بنتم وبننا ، لما ابتلّت جوانحنا
شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا (٢)
نكاه حين تناجيكم ضمائرنا
يقضي علينا الأسى لولا تأسينا (٣)
حالت لفقدكمو أيامنا ففدت
سوداً ، وكانت كم بيضاً ليالينا (٤)

(١) الكاشع : العدد المبغض . تقرأوا : تسعدوا .
(٢) بنتم وبننا : أي ابتعدتم وابتعدنا . الجوانح : جمع جانحة ، وهي الضلع ، والمراد بالجوانح ما تضمه من القلب والحشا الملتهب بالحُب .
ولا جفت مآقينا : أي ولا جفت هيوتنا من الدمع والبكاء عليكم .
(٣) التأسي : التصبر .
(٤) حالت : تغيرت من أبيض إلى أسود .

إذ جانب العيش طلق من قآلفنا
 ومورد اللهو صافٍ من تصافينا
 وإذا هصرنا فتون الوصل دانية
 قطافها ، فجنينا منه ما شينا (١)
 ليسق عهدكم ، عهد السرور ، فما
 كنتم لأرواحنا إلا رباحينا
 لا نحسبوا نأيكم عنا يغيرنا
 إن طالما غير النأي الهيننا (٢)
 والله ما طلبت أهواؤنا بدلا
 منكم ، ولا انصرفت عنكم أمانينا
 ولا استفدنا خليك عنك يشغلنا
 ولا اتخذنا بديلك منك يسليننا
 تحية واستعطاف :

يا ساري البرق غادر القصر واستقر به
 من كان صرف الهوى والود يسقيننا (٣)

(١) هصرنا : جذبنا وأملنا . فتون الوصل : أرواحه وألوانه . قطافها : ثمارها . ويرى : قطوفها .
 (٢) نأيكم : بعدكم .
 (٣) غادر القصر : أسفه وأمطره غدوة (أول النهار) . صرف الهوى : خالص الهوى .

واسأل هنالك هل عني تذكرنا
 إلفاً تذكره أُمسى يُعنيثنا (١)
 ربا نسيم الصَّبَا بلغ تحيَّتنا
 من لو على البعد حيًّا كان يحيينا
 فهل أرى الدمر يقضيها مساعفة
 منه ، وإن لم يكن رِغْبًا تقاضينا (٢)

صورة وصفية لولادة :

ربيبُ 'ملك' كانَ الله أنشأ
 مسكًا ، وقدرَ إنشاء الوري طينا
 أو صاحبه ورقًا محضًا ، وتوجّه
 من ناصع التبر إبداعًا وتحيينا
 إذا تاوّد آدته رفاهية
 'قوم' العقود ، وأدمته البرى لينا (٣)

(١) عني : أمّ وأختي

(٢) القب : الزيارة بعد أيام (التقطمة) .

(٣) تاوّد : تشبّه وتسايل . آدته : أثقلته . قوم العقود : عقود
 مزدوجة من التلوّ . البرى : الخلائيل .

كانت له الشمس ظئراً في أكليته
 بل ما تجلّى لها إلا أحيينا^(١)
 كأنما أثبتت في صحن رجنته
 زُهر الكواكب تعويذاً وتزيينا^(٢)
 ما ضره أن لم تكن أكفاءه شرفاً
 وفي المودة كافٍ من تكافينا
 يا روضة طالما أجنّت لواحظنا
 ورداً جلاء الصبا غصّاً ونسرينا^(٣)
 ويا حبيسةً قمتينا بزهرتها
 منى ضروباً ولذات أقاتينا^(٤)

-
- (١) ظئراً : مرضعة . الأكلة : السناثر الرقيقة (جمع كلة) .
 (٢) زهر الكواكب : النيرة المشرقة (جمع أزهر) .
 (٣) أجنّت لواحظنا : جعلتهنبا نجني ونقطف . النسرين : نوع من
 الورود أكثر ما يكون أبيض الزمر عطر الرائحة .
 (٤) قمتينا : قمتنا . ضروباً وأقاتينا : ألواناً وأنواعاً . المنى :
 جمع منية .

وبأ نعيماً خطرتا من غضارته
 في وشي 'نعمى' سعجنا ذيله حيناً (١)
 لسننا نسميك إجلالاً وتكرمة
 وقدرك المعتلى عن ذاك يغنيننا
 إذا انفردت وما شورك في صفة
 فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبييناً
 يا جنة الخلد أبدلنا بسدرتها
 والكوفر العذب زقوماً وغسيلنا (٢)
 كأننا لم نبت والوصل' ثالثنا
 والسعد قد غص' من أجفان واشينا
 إن كان قد عز' في الدنيا اللقاء بكم
 في موقف الحشر نلقاكم ويكفيننا

(١) غضارته : نضارته وورقه والنعمة والسمة . الوشي : نوع من الثياب الحريرية المنقوشة .
 (٢) سدرتها : أي سدرة المنتهى ، شجرة عن يمين العرش في السماء . الزقوم : شجرة في جهنم منها طعام أهل النار . الفسلين : ما يسيل من جلود أهل النار . ويروي البيت : بسلسلها بدلاً من بسدرتها ، ومعناه : المساء العذب البارد .

سرّان في خاطر الظلماء يكتننا
حق يكاد لسان الصبح يفشينا (١)
لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نمت
عنه النسي وتركنا الصبر نسينا

لوعة وأسى :

إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً
مكتوبة وأخذنا الصبر تلتقينا
أما هواك فلم نعدل بمنهله
شرباً ، وإن كان يروينا فيظميننا (٢)
لم نجف أفق جمال أنت كوكب
سالين عنه ، ولم نهجره قالينا (٣)
ولا اختياراً تجنبناه عن كسب
لكن عدتنا على كرم حوادينا (٤)

(١) يفشينا : يفضعنا ويشي بنا ويعرضنا للأبصار .

(٢) الشرب : المورد المذهب الماء .

(٣) لم نجف : لم نفارقه ونبتعد عنه كراهية . قالينا : أي مبغضينا .

(٤) عن كسب : عن قرب . عدتنا الموادي : أي صرفتنا وشغلنا
أحداث الدهر وصروفه .

نأسي عليك إذا 'حشّت مشعشة'
فينا الشمول^(١) وغنا^(٢)ا مغنينا^(٣)
لا أكّوس الراح تبدي من شمائلنا
سما ارتياح^(٤)، ولا الأوتار تلهينا

نداء أخير :

دومي على العهد - ما دمنّا - محافظة^(٥)
فالحر^(٦) من دان إنصافا كما دينا
لما استعضنا خيلا منك يحبنا
ولا استفدنا حبيبا عنك يثينا^(٧)
ولو صبا نحونا من 'علور' مطلعه
بدر الدجى لم يكن حاشاك يُصبينا^(٨)
أولي 'وفاء' وإن لم تبذلي صلة^(٩)
فالذكر^(١٠) يقنعنا ، والطيف^(١١) يكفيننا

(١) مشعشة : مزوجة بالماء . الشمول : من أسماء الحر .
(٢) استعضنا : استبدلنا . يثينا : يردنا ويصرفنا ويروي : يقيننا
بدلاً من يثينا .
(٣) صبا : مال . يصبينا : يحملنا ثمنه ونهم به .

وفي الجواب متاع إن شفعتِ به
بيض الأيدي ، التي ما زلتِ قولينا^(١)
عليك منّا سلام الله ما بقيتِ
صبابة بك 'لخفيها' ، فتخفيننا^(٢)

(١) قولينا : تعطين وتنعين . ويرى : اقتناع بدلاً من متاع .
(٢) الصبابة : الشوق والولع الشديد . ويرى : صبابة منك بدلاً من
صبابة بك .

يا ليلُ الصبِّ متى غذه ؟

للحُصْرِي القسرواني

وهذه قصيدة من عيون الشعر العربي ، ذاعت شهرتها في
أندية الأدب ومجالس الفناء وتناقلها الناس جيلاً بعد جيل ،
ولشهرتها ودورانها ، فقد عارضها شعراء كثيرون في عصور
متتابعة ، كل منهم يحاول أن يتجاوزها فتناً وشاعرية ، ومن
أشهر الذين عارضوها : أحمد شوقي شاعر العصر الحديث ،
بقصيدته التي يقول فيها :

مضناكَ جفاء مرقدٌ

وبكاهُ ورثمُ عودٌ

والتي ذاعت هي الأخرى واشتهرت في أندية الأدب ومجالس
الفناء ، وتناقلها الناس ، وأخذوا يوازنون بينها وبين قصيدة
الحُصْرِي ، ولهم في هذه الموازنات دروب وفنون ، وأحاديث
ذات شجون .

تلك هي قصيدة « يا ليل الصب » للشاعر الضير الحصري
القيرواني ، وهو أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصري ، ولد
في القيروان عام أربعمائة وعشرين من الهجرة ، وقضى فترة من
صباه وشبابه في القيروان ، ثم غادرها وهو على مشارف
الثلاثين بعد أن أجاد فن الشعر وعلم القراءات ودرس الدين
والشريعة . وكان خروجه من القيروان بعد نكبتها التي خربتها
سنة أربعمائة وتسع وأربعين في أعقاب الخلاف الذي نشب بين
الفاطميين والمعز بن باديس والذي أدى إلى انقضاء قبائل بني
هلال وبني سليم على القيروان ، فتشتت أهلها منها ، وخرج
أدباؤها وعلمائها ، فمنهم من ذهب إلى صقلية كان رشيق ،
ومنهم من توجه إلى الأندلس كان شرف القيرواني ، أما
الحصري فكان خروجه إلى « سبته » ، فاستقر بها زماناً ..
واتصل في الأندلس بعدد من الأمراء مادحاً ، ونائلاً لجوائزهم
وهباتهم وعطاياهم .

ثم عاد الحصري من الأندلس إلى المغرب ، غير أنه استقر
في مدينة طنجة ، حتى كانت وفاته سنة أربعمائة وثمان
من الهجرة .

يقول عنه ابن بسام في كتابه « الدخيرة » ، كان أبو الحسن
الحصري بحراً بارعاً ورأس صناعة وزعيم جماعة ، وقد طرأ
على الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب
وطنه القيروان ، والأدب بأفق الأندلس يومئذ ، نافق السوق ،

مغمور الطريق ، فتهاذاه ملوك الطوائف تهادي الرياض بالنسيم ،
وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأنس المقيم .

ولكنه فيما نقل لم يطمئن هناك ، فاحتمل على مضض بين
زمانه ، وبُعْدَ قطره ، ثم اشتملت عليه مدينة طنجة بعد
خلع ملوك الطوائف وتوفي بها رحمه الله .. وهو القاتل :

أقول له وقد حيا بكأس
لها من ميسك رقت ختام
أمن خديك تُعصر ؟ قال : كلا
مق عُصرت من الوراء المدام !

ويروون - أيضا - أنه كان خبيراً بأسرار اللغة العربية ،
فإن تآليفه في علم القراءات تدل على ذلك ، وأنه كان بصيراً
بشئون الحياة ، فإن في الاغتراب وصُعبة الأمراء والملوك
عوناً على فهم دقائق الوجود ..

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن هي أشهر قصائد الحصري ،
وقد تناول فيها الشاعر بأسلوبه الموهب ولغته الرقيقة شؤوناً
شتى مما يدور عادة على لسان المحبين ، ويفضح أسرار نجواهم
ومكنون قلوبهم .. نكلثم عن طول الليل ، وطيف الخيال ،
وخمر الرضاب ، وسيف المصلحة وجناية العين وحرمة الخد
وامتعطاف الحبيب وفناء الحب . كل ذلك في إطار من

الشاعرية الصادقة ، والتعبير البليغ الموحى ، والخيال السامي
الطليق .

يقول الخضرى في قصيدته : « يا ليلُ : الصبُ متى
غده ؟ » .

يا ليلُ : الصبُ متى غده ؟
أقيامُ الساعةِ موعده (١)
رقدَ السَّارُ فأرقَّه
أسفُ للبَّينِ يُردِّده (٢)
فبكاهُ النجمُ ورقَّ له
مما يرعاهُ ويرصدُّه
كلِّفُ بقرالٍ ذي هَبَفٍ
خوفُ الواشينِ يُشرِّده (٣)
نصبت عيناى له شُرْكاً
في النومِ فعزُّ تصيِّده (٤)

(١) الصب : العاشق المستهام .

(٢) البين : الفراق والبعد .

(٣) كلِّف : مولع ومتيم ، أهيف : رقة الخصر وضمور البطن ورشاقة
القوام . يُشرِّده : يبعده ويحمله لا يقرُّ في مكان .

(٤) الشُّرك : حبال الصيد ، المصيدة . عزُّ : امتنع وصعب .

وكفى عجباً أني قَنِصٌ
للسَّرْبِ سباني أَغْيَسُهُ (١)
صَنَمٌ للفتنة منتصبٌ
أهواء ولا أتعْبُدُهُ (٢)
صاح ، والحرُّ جنى فيه
سكران اللعظِ معرْبُدُهُ (٣)
ينضو من مقلته سيفاً
وكان نعاماً يغْمُدُهُ (٤)
فيريقُ دمَ العشاق به
والويل لمن يتقلَّدُهُ (٥)
كلأ ، لا ذنبَ لمن قتلت
عيناه ، ولم تقتلْ يده

* * *

-
- (١) قَنِصٌ : صياد . سباني : سادني وأسرني بحسنة . الأغيد : الناهم المتثني . المقصود به الحبيب .
(٢) صَنَمٌ للفتنة : تمثال للفتنة .
(٣) جنى له : ثرة له . اللعظ : باطن العين .
(٤) ينضو : يستل ويتزعج .
(٥) يريق : يسفك . يتقلد : يحمله .

يا من جحدتُ عيناه دمي
 وعلى خدييه تورده (١)
 خدك قد اعترفا بدمي
 فعلام جفونك تجحده
 انتي لأعبدك من قلبي
 وأظنك لا تتعمده (٢)
 بالله هب المشتاق كرى
 فلعل خيالك يسمده (٣)
 ما ضرّك لو داويت ضنّي
 صبّ يضيّك وتبعده
 لم يُبقِ هواك له رمقا
 فليبك عليه عوده (٤)
 وغداً يقضي أو بعد غدٍ
 هل من نظر يقزده (٥)

-
- (١) جحدت : أنكرت . تورده : احمراره ، والقصود الاشارة الى
 حمرة دم العاشق المقتول .
 (٢) أعبدك : أكرمك .
 (٣) هب : امنح ، الكرى : النوم .
 (٤) عوده : جمع عائد ، ذاثر الريض .
 (٥) يقضي : يهلك ويموت . يقزده : يستشع به ويناله .

يا أهلَ الشوق لنا شَرَقُ
 بالدمع يفيضُ مَوَرِدُهُ (١)
 يسوى المشتاق لقاءكم
 وصروف الدهر تبعده (٢)
 ما أحلى الوصلَ وأعذبهُ
 لولا الأيامُ تنكته
 بالبين وبالهجرانِ ، فبا
 لفؤادي .. كيف تجلده (٣)

-
- (١) يَشْرُقُ بالدمع : يفيض ويختلق .
 (٢) صروف الدهر : أحداثه ونوائبه .
 (٣) تجلده : تحمله وتصبه .

صلوات في هيكل الحب

لأبي القاسم الشابي

لعلها أشهر قصائد الحب في الشعر العربي الحديث كله .

وهي شهرة لم تنلها بين شدة الأدب ومحبي الشعر، إلا بقدر ما كانت صحيحةً جديدةً في عالم التعبير الشعري عن تجربة الحب .. وكانت جدتها وأصالتها وإيقاعها الموسيقي المتناغم هي حيثيات ذبوعها وانتشارها وحفظ الكثيرين لها .

تلك هي قصيدة « صلوات في هيكل الحب » للشاعر التونسي الخالد أبي القاسم الشابي .. الذي عبر سماء الشعر العربي ، شهاباً مباغتاً ، لم يكد نوره يشع ويسطع ، حتى اختطفته يد المنون في ريعان الشباب ، وهو لم يجاوز من العمر خمسة وعشرين ربيعاً ، فانطلقاً الشهاب الساطع ، وسكت الوتر الجديد المتفرد .

ولد أبو القاسم عام ١٩٠٩ لأبٍ من علماء الدين هو الشيخ

محمد بن بلقاسم الشابي سليل أسرة « الشابية » التي واهبت حياتها للعلم ، بعد أن أنجبت - في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين - كوكبة من حملة القلم والسيف ، امتلأ بهم التاريخ التونسي . . وكان الأب من خريجي الأزهر الشريف ، به درس أول الأمر مقيماً في مصر سبع سنين ، ثم درس بجامعة الزيتونة في تونس سنتين أخريين حصل بعدهما على شهادة « التطويع » - وهي شهادة إتمام الدراسة بالكلية الزيتونية آنذاك - ثم عين قاضياً شرعياً بعد عام واحد من مولد ابنه الأكبر أبي القاسم ، فتصرف في قضاء كثير من البلدان التونسية . وإلى هذا الأب ، يعود الفضل في التكوين الفكري والحلقي الذي أتبع لأبي القاسم . وفي ذلك المناخ الوديع الهادي ، تفتحت مداركه واستيقظت أعماقه ، ووجد في صداقته لأبيه نعم المعين على فهم ما حوله والتطلع إلى الحسى الذي لم يتكشف بعد .

يقول أبو القاسم عن أبيه : « لقد أفهمني معاني الرحمة والحنان ، وعلمني أن الحق خير ما في هذا العالم وأقدس ما في هذا الوجود » .

ثم يتاح لأبي القاسم خلال سنوات عمره الباكر لون من الرحيل والتطواف والتنقل لازم الأسرة عشرين عاماً ، ضربت خلالها في البلاد التونسية طولا وعرضا ، متنقلة من « قابس » إلى « سليانة » و« فتالة » ، ومن « مجاز الباب » إلى « رأس

للجبل ، « فزغوان » ، وراعية شاعرنا الملهم تلتقط وتخزن ،
وترى وتتأمل ، وتنتفتح وتكتمل ، وفتلى بسحر ألوان الطبيعة
التونسية ، وتنوع لهجاتها ، واختلاف عاداتها ، وتعدد بيئاتها ،
ثم هو ينقل بصره بين غابات الصنوبر والثلوج الراقدة على قمم
الجبال ، متأملا حياة الرعاة في الوديان ، بين شياهم وأغنامهم
وقطعانهم ، يعيشون حياة الفطرة والبساطة ، وحياة من
استوطنوا المدن وابتلوا بشرور ما حملته المدنية إليهم من زيف
ومجاعة لطبيعة العصر وفساد في الخلق والطباع .

ويتلى وجدان الشاعر الصغير السن ، ويتضخم رصيده
من تجربة الحياة ، ويتدفق معين شاعريته ، وتزدهر ريشته ،
فتبدع أجمل الألوان واللوحات ، وتشدو فيثارتة بأعذب
ما عرفه شعرنا الحديث من أنغام ، تتجه كلها صوب الحب
والطبيعة والنفس الانسانية المعذبة ..

درس الشابي في جامع الزيتونة وهو في الثانية عشرة من
عمره ، واكتملت له صول الثقافة العربية وينابيع التراث العربي
في أزهى عصوره ، بالإضافة إلى اطلاعه على روائع الأدب
العربي الحديث في مصر والعراق وسوريا والمهجر ، وبدأ
شعره بصافح الأسماع عام ١٩٢٣ وهو في الرابعة عشرة من
عمره ، وسرعان ما تأكد نبوغه المبكر ، ونضجه الشعري
الخارق ، وقوات قصائده ، في مجلة « النهضة » التونسية ،
ثم في مجلة « أبولو » المصرية التي كان يصدرها الدكتور أحمد

زكي أبو شادي ، والتي كانت سفيراً للذوق الشعري الجديد في الوطن العربي ، وللقلم الفنية الجديدة ، داعية لها ومبشرة بها ، ولأبولو يرجع الفضل في ذبوع شهرة الشابي ، على مستوى الوطن العربي كله ، وقأ كيد منزلته الشعرية بين شعراء جيله ، طليعة ورائداً ، وشهاباً ساطعاً متفرداً ، ووترأ شادياً بأجل وأعذب ما ألهمته إلهة الشعر ..

وينكب الشاعر بوفاة والده ومعلمه وصديقه عام ١٩٢٩ ، فتنوء حساسيته الشديدة بوقع الكارثة ، ثم يضطلع بأعباء الأسرة الكبيرة ويختار الطريق الوعر - رافضاً باب الوظيفة الحكومية - مؤثراً حياته البسيطة على رأس أسرته في « نوزر » حيث تزوج ..

وفي السنة نفسها يصاب الشابي بداء تضخم القلب ، وهو ابن الثانية والعشرين ، وينهاه الطبيب عن الإرهاق النفسي والفكري ، خاصة عن الانفعال الشعري المتقد ، لكنه لا يبالي بنصائح الطبيب ، ويواصل إنتاجه شعراً ونثراً ، ويصبح حديث الأوساط الأدبية في كل الوطن العربي مشرقه ومغربيه ، بل إن الدكتور أحمد زكي أبو الشادي - أمين جماعة أبولو - يكل إليه كتابة تصدير ديوانه « الينبوع » .

وفي صيف ١٩٣٤ يشرع الشاعر المريض المرهق في جمع ديوانه « أغاني الحياة » على أمل أن يطبعه في مصر ، لكن المنية تباغته بعد أن اشتد به المرض ، ويموت في مدينة تونس

فجر ٩ أكتوبر ١٩٣٤ ثم ينقل جثته إلى بلدته « توزر » حيث قبره .

يقول عنه معاصروه وأصدقاؤه : « كان نحيف الجسم ، مديد القامة ، قوي البنية ، سريع الانفعال ، حاد الذهن ، تكفكف رقة طبعه من غروب عاطفته (حدة عاطفته) وحدة ذهنه ، يراه أصدقاؤه بشوشاً كريماً وديماً متأنقاً طروباً لمجالس الأدب يحب الفكاهة الأدبية ، ويراه من لم يخالطه حقيقياً محتشماً ، ويعرف منه هؤلاء وأولئك صراحة حازمة قوية يُبديها لخاصة خلطائه في غير ما تخرج مني اجتمع بهم ، ويحاور بها العامة في شعره ونثره . وكان محباً لبلاده صادق الوطنية ، يفيض وجدانه بأمال بلاده وآلامها ، ويؤمن بأن لقادة الفكر رسالة إنسانية سليمة حاول جهده أن يحققها خلال حياته القصيرة - كالشهاب - قولاً وعملاً .. »

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن لأبي القاسم الشابي ، قرأها الناس لأول مرة في مجلة أبولو التي ظلت تصدر بين عامي ١٩٣٢ ، ١٩٣٤ في القاهرة ، وسرعات ما جذبت الاهتمام وشدت الأنظار إلى هذا الوتر الجديد ، وهذه اللغة الشعرية الجديدة ، وهذا التناول الجديد لتجربة الحب في الشعر الحديث بصورة غير مسبقة ؛ في إطار من الخيال العالي الممتح من أصول بيئته التونسية الجميلة ، ويوثي مواكب شعره بصور

أخاذاة فاتنة . ودهش الشعراء والأدباء والقراء لهذه اللوحة الشعرية الفاتنة التي استطاع الشابي - في اقتدار وأصالة وتمكن - أن يرسمها لحبيته ، وأن يجعل منها كائناً سماوياً يفيض رقة وطهرأ وشفافية ، بل ملاكاً من ملائكة الفردوس "يحيي في الأرض روح السلام والمحبة" ، وربيعاً تختص به الدنيا ، وتفتي على موكب الحياة ، وتنتشي روحه الكثيرة العزينة بالحب وتشدو كالبلبل الفريد ، وينطلق من جديد طموحه ونبضه وتوجهه ، ويحيا فيه ما كان قد جف ومات من عذاب الأمان وحلو التفريد ، فهي روح الربيع وهي أنشودة الأناشيد وهي سحر الشباب ، وهي موسيقية اللغات والخطوات ، وهي هي الحياة في أجمل صورها وأنصرها وأحفلها بالبهجة والأمل والاشراق ، وهي فوق حدود الخيال والشعر والفن ، وهي قدس الشاعر ومعبده وصباحه وربيعه ونشوته وخلوده .. وهي معبوده الذي يخشع دوماً لروعته وجلاله وجماله ..

فهل رأى الناس - قبل الشابي - محبوبة على هذه الصورة الفاتنة ، الأسرة ، المكتمة لونا ونفعا وعطراً ؟ وهل عرف شعرا العربي قبل هذه القصيدة الفاتنة ، مثل هذا الافتنان في رسم ملهمة الشاعر وتجسيدها باعتبارها كل ما حوله من جمال : الطبيعة والكون والوجود والربيع والصباح والدفء والحياة والنجوم والطهارة والأناشيد والموسيقى والنشوة والخيال !

وتأمل القصيدة ، فيأسرنا هذا النفس الشعري النامي
المطرد ، وهذه الموسيقى المتلاحقة المنسابة ، وهذه الصور
الشعرية الفاتنة المعبرة ، وهذا العشق الصادق العنيف ، لكنه
عشق طاهر نقي يذكرنا بعشق العذريين أمثال: قيس وجميل
وعروة وأضراهم .. بل إنه ليذكرنا بعشق المتصوفة ، الذين
تفانوا في حبهم ، وامتزج فيه العاشق والمعشوق ، والإنسان
بالحقيقة الكلية المطلقة ، وبلغوا مرتبة الحلول عشقاً وصعوداً
ووصلاً إلى حيث سلام الطمأنينة ، وقدسية الوصال .

ويختتم الشابي رائعته بصلاة شعرية حساسة ونداء هامس
آسر، يتوجه به إلى حبيبته التي يشيد سحر عينيها جمال كونه
والتي يفجر إلهام حسنبا حقيقة عالمه، يسألها ألا تهدم ما شده
الحسن في فؤاده من عوالم غنية خصبة وبخالات عذبة مؤنسة،
وألا تسحق آمال نفسه المتطلعة إلى حياة هائلة وادعة في ظل
من تحب وتهوى .

والآن إلى قصيدة الشابي :

صلوات في هيكل الحب

عذبة أنت :

عذبة أنتِ ، كالطفولة ، كالأحد
سلام ، كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسما الضحوك ، كالليلة القمر
سراء ، كالورد ، كابتسام الوليد^(١)
يا لها من وداعة وجمال
وشباب منعم أملود^(٢)
يا لها من طهارة تبعث التقى
سديس في مهجة الشقي العنيد
يا لها رقة تكاد يرقى الـ
سورد منها في الصخرة الجلمود^(٣)
أي شيء 'مراك ؟ هل أنت دفينو
س ، تهادت بين الوري من جديد^(٤)

(١) القمر ، القمر ، المضيئة بنور القمر .

(٢) الأملود : الناعم .

(٣) الجلمود : الصلابة القاسية .

(٤) غينوس : إلهة الجمال في الأساطير اليونانية .

لتعميد الشباب والفرح المله
سولَ للعالمِ التعيس العميد^(١)
أم ملاك الفردوس جاء إلى الأر
ضِ ، ليُحيي روح السلام العميد^(٢)

أنت ما أنت ؟

أنت ما أنت ؟ أنتِ رسمٌ جميلٌ
عبقريٌّ من فن هذا الوجودِ
فيك ما فيه من غموضٍ وعمقٍ
وجلالٍ مقدسٍ معبودِ
أنتِ.. ما أنتِ ؟ أنتِ فجر من السم
رِ ، تجلسي لقلبي المعمود^(٣)
قأراء الحياة في مونتق الحـ
رِ ، وجلّسي له خفايا الخلود^(٤)

(١) العميد : المفضي .

(٢) العميد : القديم ، العريق .

(٣) المعمود : الذي يثمه العشق والهيام .

(٤) مونتق : ناضر . جلّسي : كشف وأظهر .

أنت روح الربيع ، تختال في الدنـ
 يا فتية رائعات الورد
 وتهب الحياة سكرى من العطـ
 مـ ويدوي الوجود بالتفريد (١)
 كلما أبصرتك عيناى تشيـ
 نـ بخطوي موقع كالنشد
 خفق القلب للحياة ، ورف الزـ
 مر في حقل عري المجرود (٢)
 وانتشت روحي الكنيية بالحبـ
 وغنت كالبلبل الغريد (٣)
 أنت تحيين في فؤادي ما قد
 مات في أمسي السعيد الفقيد
 وتشيدن في خرائب روحي
 ما تلاشى في عهدي المجدود (٤)

(١) يدري : يسمع له صوت ، الدري : الصوت والرتين والصدى .

(٢) المجرود : المقفر الذي لا نبات فيه .

(٣) الغريد : الشادي .

(٤) المجدود : المحفوظ ، المتعم .

من طموحٍ إلى الجمالِ إلى الفنِّ
 إلى ذلك الفضاء البعيدِ
 وتبشّين رقصة الشوق والأحلام
 والشذور والهوى في نشيدي^(١)
 بعد أن عانقتُ كآبة أيتام
 مي فؤادي وألجمتُ تغريدي^(٢)
 أنت أنشودة الأناشيد غنّا
 لكم إله الغناء رب القصيد
 فيك شبّ الشباب وشجعه السحرُ
 وشدّوه الهوى وعطر الوردة^(٣)
 وتراءى الجمال يرقص رقصة
 قديماً ، على أغاني الوجوه
 وتهادت في أفق روحك أوزان
 ن الأغاني ورقة التغريد
 فتأملت في الوجوه كلحن
 عبقرى الخيال حلو النشيد

(١) الشذور : الغناء .

(٢) ألجمت : أسكت وأخربت .

(٣) وشجعه : زينه .

خطوات^١ سكرانة بالأناشيد
 دِ وصوت كرجع ناي بعيد^(١)
 وقوام يكاد ينطق بالآل
 حان في كل وقفة وقمود
 كل شيء موقّع فبك حق
 لفظة الجيد واهتزاز النهود^(٢)
 أنت .. أنت الحياة في قدسها السا
 مي وفي سحرها الشجي الفريد
 أنت .. أنت الحياة في رقة الفج
 ر وفي رونق الربيع الوليد^(٣)
 أنت .. أنت الحياة كل أوان
 في روائ من الشباب جديد^(٤)
 أنت .. أنت الحياة ، فيك وفي عين
 يك آيات سحرها الممدود

(١) الرجوع : الصدى .

(٢) مرقّع : منمّم . الجيد : الصنق . النهود : جمع نهد ، الصدر .

(٣) الرنق : البهاء والنضرة .

(٤) الرواء : البهاء والحسن .

أنتِ .. دنيا من الأناشيد والأحلام
والسحر والخيال المديد
أنت فوق الخيال والشعر والفن
وفوق النشئ وفوق الحدود^(١)
أنت قدسي ومعبدي وصباحي
وربيعي ، ونشوتي ورجودي

يا ابنة النور :

يا ابنة النور إنني أنا وحدي
مَن رأى فيك روعة المعبود
فدعيني أعيشُ في ظلك العذ
ب وفي قربِ حسنك المشهود
عيشةً للجمال والفن والإلهام
والطهر والسنا والسجود^(٢)
عيشةً للناسكِ البتول ينجي الر
بُ في نشوة الدهول الشديد^(٣)

(١) النشئ : المقول .

(٢) السنا : الاشراف والدعان والاضاءة .

(٣) البتول : المنقطع عن الدنيا الى الله ، والمنقطع عن الزواج .

وامنحني السلام والفرح الرو
 حي يا ضوء فجري المنشود^(١)
 وارحميني فقد تهدمت في كوة
 ن من اليأس والظلام مشيد
 أنقذني من الأسى ، فلقد أم
 سبت لا أستطيع حمل وجودي
 في شعاب الزمان والموت أمشي
 تحت عبء الحياة تجم القيود^(٢)
 وأماشي الورى ونفسي كالقبة
 سر ، وقلبي كالعالم المهدود^(٣)
 ظلمة ما لها ختام ، وهول
 شائع في سكونها المسدود
 وإذا ما استخفني عبث النسا
 من تبسمت في أسى وجود^(٤)

(١) المنشود : المرجو والنامول .

(٢) شعاب : جمع شئب ، الطريق والمسلك .

(٣) أماشي : أصانع .

(٤) استخفني : حملني على الجحون واللهو والطيش .

بسمة 'مرّة' ، كأيّ أستلّ
 من الشوك ذابلات الورود^(١)
 وانفخي في مشاعري مرجّ الذن
 يا وشدي من عزمي الجهود^(٢)
 وابعني في دمي الحرارة علي
 أنغنى مع المنى من جديد
 وأبثّ الوجود أنفاساً قلب
 بليليّ ، مكبل بالجديد^(٣)
 فالصبح الجميل ينمش بالدف
 و حياة المحطّم المكدود^(٤)
 أنقذيني ، فقد سئت ظلامي
 أنقذيني ، فقد مللت ركودي^(٥)

(١) أستل : انزع .

(٢) الجهود : المجهود ، التعب .

(٣) مكبل : مقيد .

(٤) المكدود : الشديد الارهاق والمسر .

(٥) الركود : عدم الحركة وعدم التجديد والتغيير .

آه يا زهرقي :

آه يا زهرقي الجميلة لو تد
رين ما جد في فؤادي الوحيد
في فؤادي الغريب تخلق أكوا
ن من السحر ذات حسن فريد
وشمس وضياء ونجوم
تنثر النور في فضاء مديد
وربيع كأنه حلم الشا
عر في سكرة الشباب السعيد (١)
ورياض لا تعرف الحلك الداء
جي ، ولا ثورة الحريف العتيد (٢)
وطيور سحرية قلناغي
بأناشيد حلوة التفريد

(١) سكرة : نشوة .

(٢) الحلك : الغلام .

وقصورٌ كأنها الشفق الخضر
 ضوب أو طلعة الصباح الوليد^(١)
 وغيومٌ رقيقةٌ تنهذى
 كأبديد من نثار الورود^(٢)
 وحياةٌ شعريّةٌ هي عندي
 صورة من حياة أهل الخلود
 كلُّ هذا يشيده سحر عيني
 لك ، وإلهام حسنك المعبود^(٣)
 وحرامٌ عليك أن تهدمي ما
 شاده الحسن في الفؤاد العميد^(٤)
 وحرامٌ عليك أن تسحقي آ
 مال نفسٍ تصير لعيشٍ رغيد^(٥)

(١) المصوب : المصبوغ بما يشبه لون الدم .

(٢) أبديد : مرق متناثرة .

(٣) يشيده : يصنعه ويحققه .

(٤) العميد : المقيم ، العاشق .

(٥) تصير : تتطلع وتهفر .

منك ترجو سادة لم نجدنا
في حياة الوري وميحر الوجود^(١)
فالإله العظيم لا يرحم العبد
أء إذا كان في جلال السجود

(١) الوري : الخلق .

القصر العاشق

للشاعر علي محمود طه

تأثني : وهل أحببت مثلي
وكم معشوقة لك أر خليفة ؟

فقلت لها - وقد همت بكأسي
إلى شفتي راحتها النخيلة -

نسيت ، وما أرى أحببت يوماً
كحبك ، لا ، ولم أعرف مثيلة

فقلت لي ، جوابك لم يدع لي
إلى إظهار ما تخفيه حيلة

وفي عينيك أسراراً حيارى
تكذب ما تحاول أن تقولة !

فقلت : أجل ، هرفت هوى الغواني
لكل غاية ولها وسيلة

إذا طالعني أنسيتُ جرحي
وأن الحب لم يرحم قتيله
وجاذبني إلى اللذاتِ قلبُ
شقيّ ضلّ في الدنيا سبيله
وعدت كما ترين صريع كاسٍ
أنا الظمآن لم يطفئ غليله
فقلت : كيف تضعف ؟ قلت : ويحي
وكيف أطاع شمشون دليله ؟
فقلت : ما حياتك ؟ قلت : حلم
من الأشواق أوثر أن أطيله
حياتي قصة بدأت بكأسٍ
لها غنيّتُ ، وامرأة جميلة !

أجل ، هذا هو مفتاح المفاتيح إلى عالم الشاعر الملاح علي
محمود طه ، إلى أعماق وجدانه ، ومسارب قلبه ، وحقيقته
حبه ومعاناته ..

والمرأة في حياة علي محمود طه شيء أساسي ، لا غنى عنه ،
وبدونها لا يكون للحياة معنى ، ولا للفن حياة ، ولا للشعر
نوهج أو حرارة ..

لقد عرف شاعرنا المترف ، الكثير الأسفار ، الباحث
أبدأ عن الجمال ينشده ويتصيد ، عرف الكثيرات من كل
لون وجنس ، وذاق شق الطعوم والصنوف ، وارتطمت تجاربه
بعشرات التماذج الإنسانية ، بين شهوة الجسد ومودة الروح
ومتعة الصداقة وبراءة التعاطف والرعاية .

والدارسون لشعر علي محمود طه ، والمتأملون فيه ، يرون
أنه كان دائم البحث في جسد المرأة ، لأن فيه اللذة وقد
اقتترنت بعبادة الجمال ، كأنما المرأة - كانت بالنسبة إليه -
المعبر الرئيسي لكل شعور يبحث عن القيم الجمالية فيها وراء
الراقع الجامد وصوره الحسية ..

يقول عنه الناقد الراحل أنور المعداوي :

« هكذا كان علي محمود طه في حياته ، وهكذا كان في
شعره . لا تفرقة بين تذوق اللذة وبين تذوق الجمال ، ولا فصل
بينهما في عالم الشعور أو عالم منظور ، لقد عشق المرأة في
صورة الجسد اللذيذ وعشق في الجسد اللذيذ صورة المعنى الجميل ،
ومن هنا امتزج الاحساسان في نفسه حتى لقد أصبحا وحدة
متناسكة ليس إلى تجزئتها من سبيل ، إن فيه « الرجل » الذي
أقبل على المادة ، وإلى جانبه « الشاعر » الذي أقبل على
الروح ، وهما لوفان من الحب بينهما من القرب ما يلغي الفواصل
ولا يعترف بالأبعاد .. هناك رجل لا يستهويه من الزهرة غير
اللذة المجردة التي ينقلها إليه طيب الرائحة ، وهذا هو المزاج

العادي الذي يقصر التذوق على اللذة المادية، وهناك رجل آخر لا يقصر التذوق على مثل تلك اللذة ما دام إلى جانبها جمال تعشقه الروح ، لأن الزهرة عنده لون وعطر ، لون يبهر ، وعطر يفوح . وهذا هو المزاج غير العادي لأنه مزاج الفنان ، مثل ذلك الرجل الأول صاحب مزاج لا يمكنك أن تصفه بأنه مزاج رفيع ، لأنه يستقبل المشهد المادي مثلاً في الزهرة بحاسة واحدة ، وكأن الحواس الأخرى قد فقدت وظائفها الرئيسية . هذه الحاسة الواحدة التي نعنيها هي حاسة الشم التي تبحث عن العطر ولا تبحث عن شيء سواه ، وسواء لديها وجدته في الزهرة أم وجدته في زجاجة العطر ما دامت كل منها تنفح الشعور بنشوة الرائحة . لو اشتركت عنده حاسة النظر مع حاسة الشم لغدت الزهرة في إحساس العين والأنف ، وهي كما قلنا لون وعطر ، ولتحول هذا الإحساس الخارجي بعد ذلك إلى إحساس داخلي هو في لغة النفس لذة وجمال ، وهنا نجد المزاج الفني المرفف عند الرجل الأخير .

في مقدمة قصيدة له بعنوان : « هي وهو » يقول علي محمود طه :

« جمعتهما المصادفة فأحسنا بذلك الانعطاف الروحي البريء الذي يقرب ما بين القلوب ويمزج بين الأرواح . وأحسا بالهوة

العقيقة العريضة التي تفصل بينها ، فتحدث إليها عن ذلك
الحب اليائس وأمله الممض ، وأن القدر لا يريد لها السعادة .

تري ، ما هي حقيقة تلك الفتاة التي أحبها علي محمود طه
وأحبتة وبعثت إلى لياليه بالسهد وإلى شعره بالحنين وإلى عينيه
بالدموع ؟ وما هي حقيقة تلك الهوة العريضة التي يشير إليها
ولا يفصح ، ويتحدث عنها ولا يبين ، تلك الهوة الرهيبة التي
فجرت فاما لتلتهم أمله الكبير في امتداد الحياة ؟

يبدو من شعره في الحب - الذي يضم عصارة قلبه
وخلصة نفسه ووجدانه - أنه على كثرة الفاديات والرائعات
من حوله كان يبحث عن امرأة معينة ، امرأة تملأ في قلبه
مكاناً خاصاً ظل منذ الطفولة وهو شاعر ينتظر ضيفه الحبيب ،
لقد لقي المرأة وهي في ثوب الخلية ، ولقي المرأة وهي في ثوب
الصديقة ، ولكنه لم يلق المرأة وهي في ثوب الأم ، هذه المرأة
التي يمكن أن تشغل البقعة الخالية في وجوده الداخلي بحنان
الأمومة ، لكم بحث عن هذا النموذج الأنثوي الذي يسد فراغاً
تركته الأم وهو صغير ، حتى لقد ظل يتطلع إليه بلهفة الطفل
التي لم ينتزعها من بين جنبي الرجل تعاقب الأيام .. فقد الشاعر
أمه الحانية ، ف قضى العمر يبحث عن ظلها في صورة زوجة ،
زوجة تشاطره الحياة ، وتنسى الطفل الكبير أنه يتيم !

والقصيدة التي نطالعها الآن للشاعر الملاح ، ليست قصيدة
حب مباشرة ، بقدر ما هي لوحة فنية فائقة ، وصورة شعرية
نادرة ، رسمها الشاعر ، وافتن في إبداعها وإكسابها إيقاعها
الموسيقي الموائم ، وجرسها المنشود ، وألوانها وظلالها الرائعة ،
مخاطباً بها ذات الغلالة الرقيقة النائمة تحت نافذتها المفتوحة
في ليالي الصيف القمرية .

أول ما يشدهنا في هذه القصيدة الجميلة موسيقاها الداخلية
الأخاذة ، ليست موسيقى الرنين أو ريقى الألفاظ التي
تخاطب الأذن ، ولكنها موسيقى الهمس الشعري تهز مسارب
الماطفة وروافد الشعور ، اندفاعاً وتوقفاً ، انسياباً وتهديجاً ،
وإسراعاً وإبطاءاً ، ارتفاعاً أو انخفاضاً .. وفرق بين موسيقى
تنقل للشعور المتلقي لحظة الغضب ، وموسيقى 'تمثل' لحظة
الدهشة واللفظ أو لحظة الأسى والحنين .

ثم هذا القمر العاشق ، يصوره الشاعر ويبدع في تصويره ،
فإذا هو بالفعل عاشق يتلى حياة وصبوة واشتهاء ، يتسلل من
نافذة المحبوبة يتأمل جسدها القائن ويتحسس ، ويتوقف عند
مواطن الفتنة فيه ، والشاعر تمتلكه الغيرة الجامحة من هذا
المتسلل الذي لا يملك له دفعا ولا ردّاً ، ومن هذا المتشيم الذي
سباه جمال الفاتنة وكأنما أعطى جمالها من قوة التأثير
ما استطاعت أن تغري به حتى الجاد ، فإذا بالقمر - وهو

مَنْ هو رفعةٌ وسناءٌ وعلو منزلة ومكان - أسير جالها ،
وعبد فتنتها ، وتابع سلطانها ، تأمره وتتحكم فيه ، وتستبيح
وتصفيه !

ونتابع مقاطع القصيدة لنصل إلى حيث يصور الشاعر
هيام القمر العاشق وقد حاول أن يقبل ثغر المحبوبة وأن
يلفّ نهدا وأن يضم الجسد .. فباءت محاولاته بالخيبة
والفشل ، ولم يصب منها شيئا ، وكأن الشاعر يحاول أن يرضي
شعوره الدفين بالغيرة ، وأن يريح هواجس نفسه المشتعلة بالألم
وهو يرى القمر متسللا إلى حيث لا يستطيع هو أن يصل أو
يشاهد أو يلمس .

والآن ، مع القصيدة التي اخترناها من بين صفحات ديوانه :
« ليالي الملاح التائه » وهو ثاني دواوينه ، سبقه صدور ديوانه
الأول « الملاح التائه » ، ثم تتابعت دواوينه : « أرواح وأشباح »
و « أغنية الرياح الأربع » و « الشوق العائد » و « شرق وغرب »
و « زهر وخر » ، حتى كانت وفاته عام ١٩٤٩ .

« القمر العاشق »

| | |
|--------------------|------------------------|
| إذا ما طاف بالشرفة | ضوء القمر المُنْثني |
| ورفء عليك مثل | الحلم أو إشراقة المعنى |

وأنت على فراش الطهر كالزنبقة الوسنى
فضممتي جسمك العاري وصوني ذلك الحسناء

أغار عليك من سابٍ كأنَّ لضوئه لنا^(١)
تدقُّ له قلوب الحور أشواقاً إذا غنَّتْ
رقيق اللبس عريده بكل مليحة يُعْنَى
جريءٌ إن دعاه الشوق أن يقتحم الحصنا

تحدّر من وراء الغيم حين رآك واستأنى^(٢)
ومسّ الأرض في رفقٍ يشقُّ رياضها الغنّا
عجبتُ له وما أعجب كيف استلم الرصنا
وكيف تسوّر الشوك ، وكيف تسلّق الفصنا

(١) ساب : أسر بالحب . الحور : جمع حوراء . يقال : عين حوراء :
أي اشتد بياض بياضها وسواد سوادها .. وهذا من صفات الحسان .

(٢) تحدّر : نزل من علوه وارتفاعه . استأنى : تأنى وتأمّل وترفّع .

على خديك خرّ صباة أفرغها دنا (١)
رحيق من جنى الفتنة لا ينضب أو يقنى (٢)
وفي نهديك طلسمان في حلّهما افتنا (٣)
إلى كنزها المعبود بات يُعالج الرثنا (٤)

أغار ، أغارُ إن قبل هذا الثغر أو تنى
ولفّ النهدي في لينٍ وضم الجسد اللدنا (٥)
فإن لضوئه قلبا وإن لسحره جفنا
يصيد الموجة العذراء من أغوارها وهنا (٦)
وكم من ليلة لنا دعاء الشوق واستدنى

(١) الدن : الكأس .

(٢) الجنى : الثمار .

(٣) طلسمان : لفزان .

(٤) الردن : أصل الكم ، وطرف الكم الراجع (أي أن القمر العاشق كان يحاول التسلل من داخل أكام الحناء) .

(٥) اللدن : اللين ، الناعم .

(٦) أغوارها : أحماها البعيدة . وهنا : ضيقا ، كسولا ، مزاحيا ، أو هي بمعنى : الوقت بعد منتصف الليل .

جثا الجبارُ بين يديك طفلاً يشتكي الغَبْنِ (١)
أراد فلم ينل ثغراً ، ورام فلم يصب حَضْناً
حوَتَكَ ذراعهُ رَمماً ، وأنت حوَيْتَهُ فَنّاً

عصيت هواه فاستضرى كأنَّ بصدرة جنّاً (٢)
مضى بالنظرة الرعناء يطوي السهل والحَزْنَ (٣)
يثيرُ الليلَ أحقاداً وصدْرَ سحابِهِ ضفناً (٤)
وعاد الطفلُ جيتاراً يهزُّ صراعُهُ الكونا

(١) الغبن : الظلم .

(٢) استضرى : اشتعل ونمرد واحتاج .

(٣) الرعناء : الحقاء أو الموجاء . الحَزْنُ : المكان المرتفع الدمر
من الأرض .

(٤) الضفن : الكراهية .

فردّي الشرفسة الحمراء دون الخدع الأسنى (١)
وصوفي الحسن من ثورة هذا العاشق المفضي
مخافة أن يظنّ الناس في خدعك الظنّ
فكم أفلقت من ليلٍ وكم من قمرٍ جُنّا !

(١) ردي الشرفة : أغلقها . دون الخدع : أي لتعجب هذا الخدع
وتخفيه عن الأنظار (حتى لا يراه القمر العاشق) .

[الأطلال]

للدكتور إبراهيم ناجي

« هذه قصة حب عائر ، التقيها وتحاببا ، ثم انتهت القصة بأنها هي صارت أطلال جسد ، وصار هو أطلال روح ، وهذه الملحمة تسجل وقائعها كما حدثت . »

بهذه الكلمات ، يقدم الشاعر إبراهيم ناجي للمحكمة الشعرية « الأطلال » ، التي يضمها ديوانه « لبالي القاهرة » ، ثاني دواوين الشاعر ، التي نُشرت في حياته ، أولها « وراء الغمام » صدر سنة ١٩٣٤ ، والثاني « لبالي القاهرة » صدر سنة ١٩٥١ ، أما الديوان الثالث « الطائر الجريح » فقد نُشر بعد أربع سنوات من وفاة الشاعر ، التي كانت في ٢٤ مارس عام ١٩٥٣ .

ولقد ظلت الأطلال عملاً شعرياً لا يعرفه إلا الخاصة من الدارسين وشدة الأدب ومتبعمي الشعر ، حتى أتيح لبعض

مقاطعها أن تصل إلى أسماع الملايين على متن صوت أم كلثوم ،
عند ذلك ذاعت شهرتها، وتناقلتها الألسنة والأسماع، وأصبحت
أشهر ما تعيه ذاكرة العامة من شعر ناجي .

أما صاحب الأطلال ، ففلم شعري بارز في حركة الشعر
المصري الحديث ، ورائد من رواد جماعة أبولو التي ازدهر
نشاطها بعد إنشائها عام ١٩٣٢، والتي كان يرأسها أمير الشعراء
أحمد شوقي ، ويتولى أمانتها الدكتور أحمد زكي أبو شادي ،
تلك الجماعة التي أسهمت بدور بارز في تطوير الشعر الحديث ،
وربطته بالوجدان الانساني ، وأصبح لها طابعها المتميز ، متمثلاً
في شعر طائفة من شباب الشعراء ، كان ناجي ألمهم شاعرية
وأكثرهم أصالة وتميزاً ، عرفوا بأصحاب الاتجاه الرومانتيكي
الغنائي ، وكان من بينهم أبو شادي وعلي محمود طه والهمشري
وحسن كامل الصيرفي وزكي مبارك وأحمد رامي وصالح جودت
وآخرون .

والتأمل في شعر ناجي ، يطالعنا - أول ما يطالعنا -
هذا الطابع الحزين القاتم ، يضيء على قصائده مسحة من
الأسى والشحوب ، ويحمل هذا الطابع كل سمات الحزن
والانطواء والوجد والهيام والهروب والانطلاق والتمرد
والتعلق بالطبيعة والتشبث بالحب .

ولقد ساعدت حساسيته المفرطة ، ومزاجه الرومانتيكي ،
وبنيته الجسمية الضئيلة - فقد كان قصير القامة ضئيل الجسم
ساذج الملامح - ساعد ذلك كله في تأكيد هذا الحزن الكامن
في وجدانه ، المترسب في القرار البعيد من أعماقه ، مخلفاً
لديه شعوراً طفولياً ورغبة طفولية في أن يعاين ويداعب كل
من يصادف من النساء ؛ ويفتح وجدانه بالفعل لكل زهرة
أنثوية يلتقي بها ، وكأنه كان ينشد أبداً حبا لا يجده ولا
يصل إليه ، وتأكيداً لذاته كان يفتقده في نفسه ولدى الآخرين ،
وأنتى له - وهو على هذه الصورة - أن يكون فنى الأحلام
المرجو أو فارس النساء المعدود .

وفي قصيدته الطويلة ، أو ملحنته « الأطلال » كما يسميها ،
تطالعنا أيضاً خصائص فن ناجي وشاعريته : روح شعري
شفاف ، وصياغة بيانية مشرقة ، وتعبير آسر بالصورة الشعرية
المتنامية والمتآزرة وخيال مجنح ، يصل بالتجربة الشعرية إلى
آفاق وتخوم لم تقتحم من قبل ، وقدرة خارقة على التصوير
والتجسيد والتجسيم ، وموسيقى شعرية تعصر وجدان المتلقي
وهو يطالع مقاطع القصيدة ، ويتنقل بين روافدها المتجمعة ،
ويستمع إلى صوت الشاعر الأسيان المفجوع في مواجهة إرادة
القدر وصوت القضاء ، ثم وهو يخاطب الريح التي كانت تعري
قلبه إغراء النصيح الفاجر باللسان والتأسي ، والريح هنا
- في هذه القصيدة - رمز للشياطين الحاقدة ، تنتهز الفرصة

لتسمى بنشر السموم ، ولكن هيات ، قالشاعر مؤمن بقضائه
وقدره ، هذا القدر الذي تمثل له في وجه محبوبته ، شيء
خلق له من قبل أن يخلق هو ..

أيها الريح أجل ، لكننا
هي حبي وتعلّاتي وبأسي
هي في الغيب لقلبي خلقت
أشرقت لي ، قبل أن تشرق شمسي

وهو معترف بأن غرامه الحار المتوهج "قدر" في طعم
الموت ، قدر مشثوم ، حول عمره إلى مآتم ، ولم يترك له من
عمر البهجة وأعراسها ساعة واحدة :

يا محراماً كان منثي في دمي
قدراً كالموت ، أو في طعمه
ما قضينا ساعة في عثره
وقضينا العمر في مآتمه

ولكنه ، بالرغم من ذلك كله ، متعاطف أشد التعاطف
مع صرعى القضاء ، وضحايا المقادير ، يذوب قلبه حنواً
وألماً ومشاركة :

أيها الشاعر : كم من زهرة
'عوقبت' ، لم تدر يوماً ذنبها !

فإذا عدنا الى الأطلال وجدناها صورة صادقة الملامح لقصة
الحب المساوية ، الدامية الختام .. تتأوج مقاطعها بكل ما في
قصص الحب ، من تذكّر ولوعة وحسرة ، ومواقف انطلاق
وصبوة وغفلة عن فعل الزمان وتبدل الأيام ، وافتتان بالحب
ذلك الذي يرقى بالإنسان الى عالم أسمى وأسمى ، فيدمن الرقي
والطموح نحو سماء غير منظورة ، ويلتقي الحبيبان في قمتها
المنفردة ، ويبحران بسرّيهما ، ويريان الناس من تحتها ظلالاً
في السفوح ، وفجأة يتغير الحال ، وتعبث المقادير ، ويضرب
القضاء ضربته ، وسرعان ما يهوي التمثال الذي صنعه العاشق
لنفسه ، من أحلامه وأوهامه ومطامحه وأشواقه وتصوراتهِ ،
من أسمى حرمانه وعنفوان تطلّعه ، ويصبح الحبيبان - في
غمضة عين - منفيتين في فياقي الحياة ، وصحرائها ، يواجهان
الأشواك والصخور ، والجذب والظلام والحفظ السود والليل
الضريّر ، وتلأ الهواجس نفس العاشق ، وتتعاور معه
الكائنات . ماذا عليه لو نسي أو قنأسي ؟ ماذا عليه لو ودع
هذا الغرام اليائس وهذا الحب القاتم المدمر ؟ وتهمس الريح
في أذنيه بنصحها الشرير : إن من حوله القلوب والنساء بعده
الرمّل ، فليتخير من يشاء ، وليبدأ من جديد صفحة حبه
الجديد ، وليؤمن من الآن أن الناس جميعاً من طين وماء ،
فأبناء السماء لا يعيشون على الأرض !

لكنّ الشاعر العاشق لا يستمع إلى هذا كله ، ولا يفتح له

نوافذ قلبه ، إنه مؤمن بقدره ، محتضن لقضائه ، مستسلم للنهاية
الأليمة الفاجعة :

فإذا أنكر خيل* خلته*
وتلاقينا لقاء الغرباء*
ومضى كل* إلى غايته
لا تقل شئنا ، فإن* اللحظة شاء*

* * *

هذه هي الأطلال ، ملحمة ناجي ، ولوحة حبه الأخاذة
الرائعة ، الناطقة بقدرته الخارقة على التصوير والتجسيد ،
والتعبير عن المعنويات في صورة المحسوسات ، ورسم الجو
العاطفي والنفسي المحيط بالمشهد في كافة أبعاده وعناصره ،
وقدرته على توفير الإيقاع الموسيقي المواكب لحركة النفس
والشعور بسطاً وانقباضاً ، إشراقاً وعتامة ، انطلاقاً وعبوساً ،
ثم على تنويع هذه الإيقاعات كما فعل في المقاطع التي ضمنها
حديث الريح وهمسها إلى الشاعر عندما تخيلها تنصحه وتعاتبه
على التماذي في الحب الممذّب ، فقد صاغ الشاعر مقاطعه هذه
من بحر الرمل - الذي نظم منه قصيدته كلها - ولكن من
مجزوء البحر وليس من البحر بكامل تفاعيله ، فجاء هذا
التنوع الموسيقي انعكاساً للتنوع التعبيري والشعوري في مواقف
التجربة الشعرية ، ومفرقاً بين طبيعة الفقرات التي يتحدث

فيها الشاعر بنفسه ، والفقرات التي يترك فيها عنان
الحديث لغيره .

يبقى بعد ذلك أن نشير الى طبيعة هذا البحر الشعري
الذي صاغ منه ناجي ملحنته الشعرية : « بحر الرمل » ،
فالمعروف أنه من البحور الهادئة الموسيقى ، الميموسة الإيقاع ،
الملائمة كل الملاءمة لمثل هذه التجربة الشعرية العميقة التي عبّر
عنها ناجي أبجل تعبير ، وصوّرها أروع تصوير .

الأطلال

« هذه قصة حب عائر ، التقيا وتحابا ، ثم انتهت
القصة بأنها هي صارت أطلال جسد ، وصار هو
أطلال روح ، وهذه الملحمة تسجل وقائهما كما
حدثت » .

يا فؤادي ، رحم الله الهوى
كان تصرّحاً من خيال فهوى^(١)
أسقي واشرب على أطلاله
وارور عنتي ، طالما الدمع روى

(١) الصرح : القصر أو البليان العظيم الشاهق .

كيف ذاك الحبُّ أمسى خبراً
وحديثاً من أحاديث الجوى
وبساطاً من ندامى حُلُمٍ
هم تواروا أبداً ، وهو انطوى

يا رياحاً ، ليس يهدأ عصفها
نَضَبَ الزيتُ ومصباحي انطفأ (١)
وأنا أقتاتُ من وهمٍ عفا
وأفي العُمرَ لناسٍ ما وقى (٢)
كم تقلبتُ على خنجريه
لا الهوى مال ، ولا الجفنُ غفا
وإذا القلبُ - على خفرائه -
كلما غارَ به النصلُ عفا (٣)

(١) نضب : لقد وائتهى .

(٢) عفا : وحل وانقشع .

(٣) النصل : طرف الرمح أو السهم .

يا غراماً كان منسي في دمي
قدراً كالموت ، أو في طعمه
ما قضينا ساعة في عرسه
وقضينا العمر في مآتمه
ما انتزاعي دمة من عينه
واغتصابي بسمة من فيه
ليت شعري أين منه مهربي
أين يمضي هارب من دمه ؟

لست أنساك وقد ناديتني
بفهم حذب المناذرة رقيق
ويد تتمد نحوي ، كيد
من خلال الموج مدّت لفريق
آه يا قبلة أقدامي ، إذا
شكت الأقدام أشواق الطريق
وبريقاً يظلم الساري له
أين في عينيك ذبائك البريق؟^(١)

(١) الساري : المسافر ليلاً .

لست أنساك ، وقد أخريثني
بالذرى الشم* ، فأدمنت الطموح^(١)
أنت روح* في سمائي ، وأنا
لك أعلو ، فكأنى محض روح
يا لها من قسم كنا بها
تتلاقى ، وبسرنا نبوح
نستشف الغيب* من أبراجها
ونرى الناس ظلالاً في السفوح

أنت 'حسن' في ضحاء لم يزل
وأنا عندي أحزان' الطفقل^(٢)
وبقايا الظل* من ركب رحل
وخيوط النور من نجم أفل
ألمح الدنيا بعيني سيم
وأرى حولي أشباح الملل

(١) الذرى الشم* : القمم المرتفعة ، يقصد بها الآمال والأهداف
الرفيعة .

(٢) الطفقل : وقت الغروب .

راقصاتٍ فوق أشلاء الهوى
'مغولاتٍ فوق أجداث الأمل'^(١)

ذهب العمرُ هباءً ، فاذمهي
لم يكن وعدك إلا شبحاً
صفحة قد ذهب الدهر بها
أثبت الحبّ عليها ومحا
انظري ضحكي ورقصي فرحاً
وأنا أحمل قلباً 'ذبحاً'
ويراني الناس روحاً طائراً
والجوى يطحنني طعن الرّحمي'^(٢)

كنت تمثال خيالي ، فهوى
المقادير أرادت لا يدي
ويحّتها ، لم تدرِ ماذا حطّمت
حطمت قاجي ، وهدّأت معبدي

(١) أجداث : قبور ، جمع جدث . 'مغولات' : ياكيات بشدة .

(٢) الرّحمي : الطاحون .

يا حياة اليائس المنفرد
يا يباباً ما به من أحد^(١)
يا قفاراً لافحات ما بها
من فجيء^(٢) ، يا سكون الأبد^(٣)

* * *

أين من عيني حبيبٌ ساحرٌ
فيه نبلٌ وجلالٌ وحياء
وائق الخطوة يمشي ملكاً
ظالم الحُسن ، شهيد الكبرياء
عبق السحر كأنفاس الربى
سأم الطرف كأحلام المساء
مشرقُ الطلعة ، في منطق
لفسة النور ، وتمبير السماء

* * *

أين مني مجلسٌ أنتَ به
فتنةٌ تمتت سناء وسنى

(١) اليباب : القفر ، الخراب .
(٢) فجى : أنيس ، رفيق يقضي إليه بالنجوى .

وأنا حبة وقلب ودم
وفراش حائر منك دنا
ومن الشوق رسول بيننا
ونديم قدم الكأس لنا
وسقانا ، فانتفضنا لحظة
لغبار آدمي منا (١)

* * *

قد عرفنا صولة الجسم التي
تحكم الحي ، وتطفى في دماه (٢)
وسمعنا صرخة في رعدنا
سوط جلاد ، وتعذيب إله
أمرتنا ، فعصينا أمرها
وأبيننا الذل أن يقش الجباه
حكم الطاغى ، فكنتا في العصاة
وطردنا خلف أسوار الحياة

* * *

(١) الغبار الآدمي : يقصد به نشوة الجسد وشهوته .

(٢) صولة : سطوة وقهر وغلبة .

يا لمنفيثين ضلًا في الوعور
دميًا بالشوك فيها والصخور
كلما تقو الليالي ، عرفنا
روعة الآلام في المنفى الطهور
طردنا من ذلك الحلم الكبير
للحظوظ السود ، والليل الضير^(١)
يقبسان النور من روحيهما
كلما قد ضنت الدنيا بنور^(٢)

* * *

أنتِ قد صيرتِ أمري عجباً
كثرت حولي أطيّار الرّبي
فإذا قلتُ لقلبي ساعةً
قمْ نفرّد لسوى ليلى أبى
حجبٌ قأبى لعيني مأرباً
غيرَ عينيك ، ولا مطلباً

(١) الضير : الأذى ، والمراد به الشديّد الطلّة

(٢) يقبسان : يستعدان ويستلھان .

أنتِ من أسد لها ، لا تدعي
أنني أسدلتُ هذي الحجابا (١)

* * *

ولكم صاح بي اليأسُ انتزعها
فبردُ القدرُ الساخر : دَعَهَا
يا لها من خبطةٍ عيباء ، لو
أنني أبصر شيئاً لم أطمعها
وليّ الويلُ إذا لبثتها
وليّ الويل إذا لم أتبعها
قد حشّت رأسي ، ولو كلّ القوى
تشغري عزّة نفسي ، لم أبعها

* * *

يا حبيباً زرتُ يوماً أيكتهُ
طائرَ الشوق ، أغنني ألمي (٢)

(١) الحجب : الستائر والموانع .

(٢) الأيكته : الشجرة الكثيفة المتلصقة . وهي رمز للكان الذي
يظل العشاق .

لكَ إبطاءُ الدلالِ المنعم
وتجنّتي القادرِ المهتمكم (١)
وحنّيني لكِ يكوي أعظمي
والثواني جرات في دمسي
وأنا مرتقب في موضعي
مرهف السمع لوقع القدم

قدمٌ تخطو ، وقلبي مشب
موجةٌ تخطو إلى شاطئها
أيها الظالم : بالله إلى كم
أسفح الدمع على موطنها
رحمةٌ أنت ، فهل من رحمةٍ
لغريب الروح أو ظامئها
يا شفاء الروح ، روعي أشحتي
ظلمَ آسيها ، إلى بارئها (٢)

(١) تجنّي : ظلم وقسوة .

(٢) الآسي : الطبيب ، والداوي . البارئ : الخالق ، أو الذي ينقّي
من مرضه .

أعطني حريقي أطلق يديّ
إنني أعطيتُ ما استبقيتُ شيّ
آه من قيدك أدمى معصميّ
لم أبقيد ، وما أبقى عليّ ؟
ما احتفاظي بمهودٍ لم تصنها
والأمّ الأسرُ ، والدنيا لديّ (١)
هاأنا جفست دموعي ، فاعفُ عنها
إنها قبلك لم تبدل لحيّ

وهب الطائر من عُشِّك طارا
جفست الغدرانُ ، والثلجُ أغارا
هذه الدنيا قلوب جمدت
خبث الشعلةُ ، والجمرُ توارى
وإذا ما قبس القلب غدا
من رمادٍ ، لا تسله كيف صار (٢)

(١) الأسر : الحبس والسجن .

(٢) القبس : شعلة النار .

لا تسل ، واذكر عذاب المصطلي

وهو يذكيه ، فلا يقبس ناراً^(١)

لا رعى الله مساءً قاسياً

قد أراني كل أحلامي سدى

وأراني قلباً من أعبدته

ساخراً من مدمعي سخر العدا^(٢)

ليت شعري ، أي أحداث جرت

أزلت روحك مجناً موصداً^(٣)

صدت روحك في غيبها

وكذا الأرواح يعلمها الصدا^(٤)

قد رأيت الكون قهراً ضيقاً

خيم اليأس عليه والسكوت

ورأت عيني أكاذيب الهوى

واهيات كخيوط العنكبوت

(١) المصطلي : من يوقد النار بقصد الاستدفاء .

(٢) سخر : سخر به .

(٣) موصداً : مغلقاً .

(٤) الغيب : الظلام .

كنت ترثي لي ، وتندري ألمي
لو رثى للدمع تمثال صموت
عند أقدامك دنيا تنتهي
وعلى بابك آمالُ تموت

كنت تدعوني طفلاً ، كلما
ثار حيي ، وتندت مقلي^(١)
ولك الحق ، لقد عاش الهوى
في طفلاً ، ونسا لم يعقل
وأرى الطعنة إذ صوّبتها
فشت مجنونة^(٢) للمقتل
رمت الطفل ، فأدمت قلبه
وأصابت كبرياء الرجل

قلتُ للنفس وقد جزّنا الوصيда
عجّلي لا ينفع الحزم^(٣) وقيدا

(١) تندت : ابتلت بالدموع .

(٢) الرصيد : المر الضيق المطبق .

ودعي الهيكلَ شئت ناره
تأكل الركعَ فيه والسجودا
يتمنى لي وفائي عودةً
والهوى المروح يأبى أن يعودا
لي نحو اللهب الذاكبي به
لفتة العود إذا صار وقوداً^(١)

لست أنسى أبداً ساعةً في العُمرِ
تحت ريح صفتت لارتقاصِ المطر^(٢)
فوثحت للذكر وشكت للقمر^(٣)
وإذا ما طربت عربدت في الشجر
هالك ما قد صبّت الريح بأذن الشاعر
وهي تغري القلب إغراءً الفصيح الفاجر :
« أيا الشاعر تغفو تذكر العهد وتصحو
وإذا ما التام جرح جدّ بالتذكّار جرح^(٤) »

(١) الذاكبي : الشتمل ، التأجيج .

(٢) ارتقاص المطر : حركة المطر أثناء انهياره بغزارة .

(٣) الذكر : الذكريات .

(٤) التام : التام ، أي برىء وشفي .

فتعلم كيف تنسى وتعلم كيف تمحو
أو كلُّ الحب في رأٍ بك غفرانٌ وصفح ؟

هاك فانظر عدد الرملِ قلوباً ونساء
فتغيّر ما تشاء ذهب العمرُ هباء
ضلّ في الأرض الذي ينشدُ أبناء السماء
أيُّ روحانية تعد صر من طينٍ وماء !

أيها الريح أجَلٌ ، لكنّما
هي حبي وتعلّاتي ويأمني
هي في الغيب لقلبي خلقت
أشرقت لي ، قبل أن تشرق شمسي
وعلى موعدهما أطبقت عيني
وعلى تذكّرها وسدتُ رأسي

جنّت الريح ونادته شياطين الظلام
أختاماً ! كيف يحلو لك في البدء الختام ؟
يا جريحاً أسلم الجرح حبيباً نكاه
هو لا يبكي إذا الناعي بهذا نبأه

أيها الجبار هل تصرع من أجل امرأه ؟

يا لها من صيحةٍ ما بعثت
عنده غير ألم الذِّكر^(١)
أرقت في جنبه ، فاستيقظت
كبقايا خنجر منكسر
لمس النهر وناداه له
فمضى منحدرًا للنهر
فاضبَّ الزاد ، وما من سفر
دون زادٍ غير هذا السفر^(٢)

يا حيي كل شيء بقضاء
ما بأيدينا خلقنا نساء
ربما تجمعنا أقدارنا
ذات يومٍ بعدما عزَّ اللقاء
فإذا أنصر خلُّ خلته
وتلاقينا لقاء الغرباء

(١) الذكر : الذكريات .

(٢) فاضب : فارغ .

ومضى كل^١ إلى غايته
لا تقل شئاً ، وقل لي الحظ^٢ شاء

يا مُفَنِّئِي الخلد ، ضيّعتَ العُمُرَ
في أناشيدٍ تُفَنِّئِي للبشر^٣
ليس في الأحياء من يسمعا
ما لنا لنا نغمي للحجر^٤ !
للجهاداتِ التي ليست بقي
والرمياتِ البوالي في الحفر^(١)

غنىها ، سوف تراها انتفضت
ترحم الشادي ، وتبكي للوتر

يا نداءً كلما أرسلته
رُدتْ مقهوراً وبالخط^٥ ارتطم
ومتافئاً من أغاريد المني
عساد لي وهو نواح وندم
رُبَّ تمثالٍ جالسٍ وسنا
لاح لي والعيش شجو وظلم

(١) الرميات البوالي : الجنث البالية ، يقصد الموتى .

أرقى اللحن عليه جاثياً
ليس يدري أنه 'حسن أصم' (١)

هدأ الليل ولا قلب له
أيها الساهر يدري حيرتك
أيها الشاعر خذ قيثارتك
غنّ أشجانك ، واسكب دمعك
ربّ لحن رقص النجم له
وغزا الشّعب ، وبالنجم فتك
غنّه ، حتى ترى ستر الدجى
طلع الفجر عليه فانهتك

وإذا ما زهرات 'ذعرت
ورأيت الرعب يغشى قلبها
فترففت واثد واعزف لها
من رقيق اللحن ، وامسح دعبها

(١) جاثياً : راكماً .

ربما نامت على مهد الأسي
وبكت منصرخات ربها
أيها الشاعر ، كم من زهرة
عوقت ، لم تدرك يوماً ذنبها !

أقبلي كالصلاة

للشاعر محمود حسن إسماعيل

هو الشاعر الوحيد - من بين شعرائنا الأحياء (١) - الذي
آثرت أن اضمّن هذه المجموعة إحدى قصائده العاطفية ، بل
أحلى ما قاله في الحب : قصيدته « أقبلي كالصلاة » ، التي
يضمها ديوانه « هكذا أغني » الذي صدر عام ١٩٣٧ ، وقبله
كان الديوان الأول « أغاني الكوخ » عام ١٩٣٤ ، ثم تتابعت
رحلة الشاعر الثرية والخصبة من خلال دواوينه : « أين الممر »
« نار » وأصفاد ، « قاب قوسين ، لا بد » ، « التائهون » ، « صلاة ورفض »
« نهر الحقيقة » ، و« هدير البرزخ » .

في شعر محمود حسن إسماعيل مذاق خاص ، ما أسرع
ما يضافعنا ونحن نتأمل كلماته وأنغامه ، مذاق يختلط فيه
عبير صعيد مصر ، بروائح الريف المصري ، بطقوس العبادات
المترابكة على ضفتي الوادي على مدار التاريخ السحيق ، فرعونية
وقبطية وإسلامية ، ويختلط فيه أيضاً تكوين الشاعر المتكسب ،

(١) توفي الشاعر عام ١٩٧٧ .

على ثقافة شرقية إسلامية ، ترفدها تطلعات الشاعر المستمرة
الى الانفتاح على آفاق التجربة الشعرية المعاصرة ، في الوطن
العربي ، وعلى الصعيد الانساني كله .

هذا المذاق الخاص ، المتميز ، المركّب ، هو الذي يجعلنا
نكتشف أن لشعر محمود حسن إسماعيل قاموساً خاصاً ، قاموساً
فريد الدلالات والإيحاء ، عميق اللمس بالصور والرموز ، لا بدءاً
من اكتشاف أغوار الشاعر - الضاربة الأعماق في التاريخ
والحياة - للوصول إلى حقيقة هذه الدلالات ، وإعطائها
ما يطابقها في عالم الصحو ، عالم النثر اليومي ، معانيها المباشرة ،
ولإلا ظلت مغاليتي هذا القاموس الشعري متأبّيةً علينا
لا نتمكن من فهمها ، ولا تكشف لنا عن حقيقة مراميها ، قبل
أن نستطيع الكشف عن نوعية هذا الشاعر المتميز ، وطبيعة
وجدانه الشعري المتكاثف ، المتعدد الدوائر والروافد
والأصول .

يلفت النظر في شعر محمود حسن إسماعيل أيضاً ، فضلاً عن
هذا المذاق الخاص والقاموس الشعري الخاص ، مصريته ،
طابعه المتناغم مع روح الانسان المصري في صدامه وارتطامه
مع بعمدي الزمان والمكان ، هذه المصرية شيء أكبر من مجرد
الاهتمام التسجيلي بظواهر الحياة أو البيئة ، أعمق من مجرد
تناول مألوف الحياة على وجه هذا الوادي في أشجارها ونباتاتها
وألوانها ، إنها نفاذ الى السر البعيد في وجدان الانسان ، قدرة

على استكناه الأغوار البعيدة في أعماقه ، تلك الأغوار التي
يتاح لشتى الروافد والجداول أن تنصب فيها ، وسرعان ما
تتمثلها ، وتحفظ لنفسها - بعد ذلك - سميتها الأصل غير
مشوب ، وإن أصبح أكثر نراء وعمقا وخصوبة .

هذه المصرية كامنة أعمق الكون فيما يمكن تسميته بـ «السر»
هذا الخاطر الكوني الملحّ على محمود حسن إسماعيل : الشاعر
والإنسان ، وهو السرّ نفسه الذي استوقف المصري القديم
أمام تجربة الشروق والغروب فبنى الأهرام واكتشف معنى
الخلود ، وأمام فيضان النيل وانحساره فعبد النيل وقدم
الحياة ، واستوقف المصري الحديث أمام هتاف المآذن ورنين
أجراس الكنائس ودوران دولاب الحياة على ظهر هذا الوادي
المثقل بتراكمات السنين وأعباء الأزمنة وميراث الأجيال .
وما يزال السر الغامض لغزاً ، لكنه في أعماق شاعرنا إغراء
يقظ ، ونداء صامت أخرس ، وتوهج دام في لحظات الغيبوبة
الروحية ، والانسلاخ من نثر الواقع اليومي ، بحثاً عن شعر
الحياة في ليلها الساكن الوديع .

وبالإضافة إلى المذاق الخاص والقاموس الشعري المتفرد ،
والبحث الدائب عن السر ، تقمصاً وتعبيراً ، إفضاءً وخوفاً من
التصريح ، يدهشنا في شعر محمود حسن إسماعيل هذه الرؤية
الكلية للإنسان والحياة ، إن التجارب الشعرية عنده تستمد
قيمتها وغناها من هذا الإطار الأكبر الذي نطالها فيه ،

فيبدو الجزء في إطار الكل ، وتكتسب التفاصيل الصغيرة معناها الدائم والسرمدى ، ويصبح الإنسان المنفرد على ظهر هذا الكوكب وتراً في لهاة الطبيعة وبضعة من الإرادة العليا القاهرة ، وحصة في جسر الوجود البشري المتراكم ، وبنفس القدر : تصبح الشجرة المنفردة صوتاً شعرياً يضيح بحذاء الطبيعة للكون ، وترديداً لصوت الرياح المعبر عن ملحمة الوجود والعدم وهكذا ..

محمود حسن إسماعيل إذن هو شاعر التجارب الكبرى ، شاعر الرؤى الكونية الشمولية ، شاعر ما وراء الجزئي والمنعزل والمنظور ، إن - شيئاً ما - يستهوي دائماً بصيرته الشعرية النفاذة ، فإذا هو يطالع في الوجه الواحد عشرات الوجوه ، وفي المعنى الواحد عشرات التنويعات من المعاني ، وفي الصوت الواحد جنازة كاملة من الأصوات أو سيمفونية متداخلة - ربما غير متجانسة - من الحوارات !

نرى ، إلى أي مدى يكشف محمود حسن إسماعيل من خلال رحلته الشعرية المتنامية ، المثقلة بهبات العطاء الشعري الرغيع عن هذا السر ؟ عن إطار هذه الرؤية الكونية التي متى يُفصح الشاعر عن محاور قلقه العميق ، ووتر شجنه الكونيّ المأساوي ، ويضع أيدينا على حائط مبعاه الحقيقي دون جزع أو خجل أو وجل ؟

أنا والنأي والحياة

وسرّ في طوايا النفوس يخفيه برقع !
كلما سلّ شعاعي من الليل ،
على موضع ، يُداريه موضع
لست في حيرة ، ولا في وقوف
فمع الله نظرتي تتطلع
كلما فرّ طائر ، حاصرته ..
فأثاما من حالك التيه يخشع
هدأة .. وانطلاقة
وإذا النور على الدرب
يستهل ، ويسطع !

وتأملوا معي بعض عناوين دواوينه : قاب قوسين ،
لا بدّ ، صلاة ورفض ، نهر الحقيقة ، هدير البرزخ ، لتدركوا
أي ربح تملأ هذا الشراع ، وأية وجهة يقصدها هذا الملاح
المغامر ، الضارب أبداً في عباب الجهول !

ولكن لماذا هذه القصيدة بالذات .. « أقبلي كالصلاة » !
إنها ليست من ديوانه الذي أفرد به بكامله لتجربة حبه العظيم
الدمر ، هذا الحب الذي عصف به الشك ، فدمر جدران
معبد ، وزلزل قوائم محاريبه - ديوان « أين المفر » ..
وليست من شعره الأخير ، الذي يتآزر فيه نضج التجربة ،

واكتال الأدوات الشعرية ، ووفرة المواد الأولية التي أتاحت
للشاعر ، الذي أصبح أقل خشونة وقسوة مع نفسه ومع
الحياة ، وإن كان أشد توهجاً بحقيقة الشعر ومتطلبات الفن .

ربما كان اختياري لها السبب ذاتي محض ، فديوان « هكذا
أغني » هو أول ما وقعت عليه من شعر محمود حسن إسماعيل ،
كنت وقتها حدثاً غريباً ، مفتوناً بشعراء المدرسة البيانيسية
للمحافظة ، القوية النسيج ، الرصينة القوافي ، الجزلة التعبير : من
أمثال شوقي وحافظ والجارم ، وكما يتميز الضد بالضد ، فقد
تمايز في نفسي شعر محمود حسن إسماعيل على الفور ، واستهواني ،
فانكببت عليه وأعرضت عما سواه ، وكان دليلي - فيما بعد -
إلى حساسية الشعر المعاصر كله بوجه عام ، والشعر الجديد ..
بوجه خاص .

في ذلك العهد كانت قصيدة « أقبل كالصلاة » مزموراً
للحب ، نتناشده فيما بيننا ، ونترنم بإيقاعاته وموسيقاه ،
الممتدة ، الطويلة النفس ، ثم اختطفتنا صور القصيدة ولوحاتها
الشعورية المتتابعة : صورة الزورق الشريد الحيران في مهب
الرياح العاتية تحت جناح الدياجير ، والشاطئ المرجى بعيد ..
ولا أمل يلوح ، وصورة الأيكة الوارفة الظلال تمنح الأمان
والسكينة ، والواحة السخية يفيء إليها العاشق المجهود هرباً
من هجير الأسى ، وصورة الفجر منسكباً على الحقول يمنحها
حياةً وصلاةً ونشوةً وتهللاً ، وصورة أنسام الفجر ترفرف

وتذوب على حفيف السنابل ساكنة شعر الحياة الهامس المهنج،
 وصورة هذه الـ «أنت» التي يكررها الشاعر في مستهل ثمانية
 عشر بيتاً من قصيدته «كل» بيت منها ينطق بقسمة من قسرات
 هذه الحبيبة ويضفي لوناً إلى لوحها الأخاذة الفاتنة ، وهي
 تذكرنا بصورة الـ «أنت» التي صاغها أبو القاسم الشابي في
 رائعته «صلوات في هيكل الحب» والتي استهل بها أيضاً
 اثني عشر بيتاً من أبيات قصيدته ، كما يذكرنا البحر الشعري
 لقصيدة محمود حسن إسماعيل بالبحر الشعري: النفسي والنغمي
 الذي صيغت منسبه قصيدة الشابي وهو «بحر الحفيف» ،
 بتفصيلاته المسترخية الممتدة كأنها حركة مجذاف يضرب وجه
 الماء في هدوء ودعة وانسياب ، كذلك تذكرنا صرخات محمود
 حسن إسماعيل ونداءاته في ختام قصيدته واستغاثاته المتتابة
 بحبيبته التي يراها قادرة على أن تمنحه الحياة والإبداع والطموح:

فتعالي نقيباً عن ضجة الدنـ
 يا ، ونمضي عن الوجود ونرحل
 وإلى عشنا الجميل ، فقبـ
 هزجٌ للهوى ، وظلٌ وجدول
 أقبلي .. قبل أن قيل به الرد
 يح ، ويهوي به الفناء المعجل
 أقبلي .. فالجراح ظمأى ، وكأس الـ
 حبٌ نكلى ، والشعرُ نايٌ معطل

تذكرنا صرخات هذا الختام ، بصرخات الشايّ ونداءات
المتابعة أيضاً في ختام قصيدته :

أنقذيني ، فقد سئمتُ ظلامي
أنقذيني ، فقد مللتُ ركودي

ثم وهو يقول :

وحرامٌ عليك أن تهدي ما
شاده الحسن في الفؤاد العميد

وحرامٌ عليك أن تسحقني آ
مالَ نفسٍ تصبو لعيشٍ رغيد

فالإله العظيم لا يرحم العبد
د ، إذا كان في جلال السجود

* * *

يبقى أن نتّاحَ لهاتين القصيدتين دراسةً نقدية مقارنة ،
تكشف عما بينهما من مناخ نفسي مشترك ، ونخطيط شعري
متماثل ، كما تكشف عما فيها من تفرّد وتمايز وأصالة ، وكلتاها
صادرة عن وجدان شعري عميق ، ممتلئ بتجربة الحياة ،
شديد الحساسية لإيقاعات الكون ، متلاحم النسيج مع صور
الطبيعة وظلالها ، فناءً صوفياً ، وانجذاباً روحياً ، ونزوعاً
إلى التطهير والتطهر في محراب الطبيعة ، وديرتها الأقدس ،

وهي نزعة حارة متوهجة، نطالها دائماً في أشعار الروماقيين
الكبار ، الذين كانت لهم صلواتهم وغنائياتهم وأشواقهم
حُلماً دائماً ينشد الالتحام بالطبيعة والفناء فيها والتطهر من
خلالها ..

ولسوف يجد النقد المقارن في تأمله لهماين القصيدتين وكشفه
عن عالم الشاعرين من خلالها ، قيمة فنية جديدة بالدراسة
والتنويه ، وبأن توضع بين أيدي شدة الأدب ودارسيه وأمام
أبصارهم ، متضمنة لونا من النفاذ إلى أعماق الإبداع الشعري
في أقصى حالات تدفقه وانسيابه ، وأكثرها عذوبة وجمالاً
وشفافية ..

'نرى ، متى يقدرُ لشعرنا العربي أن يغني بمثل هذه
الصرخات الكونية العبارة ، المتوهجة بنفاذ الرؤية الشعرية
والوعي الإنساني ، وأن تضاف إلى « ديوان الحب » فيه مثل
هذه التراتيل الصادقة النفاذ ، العميقة الحمس ، الثرية العطاء !

* * *

أقبلي كالصلاة

أقبلي

أقبلي كالصلاة ، رقرقها النفس
لك ، بحراب عابد متبتل

أقبلي آية من الله علينا
زفتها للوجود وحي منزل

أقبلي ، فالجراح ظمأى ، وكأس الـ
حب ثكلى ، والشعر ناي معطل

أنت لحن على فمي عبقرى
وأنا في حدائق الله بلبل

أقبلي .. قبل أن تميل بنا الرد
ح ، ويهوي بنا الفناء المعجل

زورقي في الوجود حيران شاك
مثقل بامى ، شريد ، مضلل

أزعجته الرياح ، واغتناله اللّـي
ل' ، يـجنح من الدياجير مُسبِل^(١)
فهو في ثورةٍ الحُضْمُ غريبٌ
سَخَطَ النُّوحَ بالـمـي وتَنَقَّل^(٢)
أقبلي يا غرام رُوحِي ، فالشُّطُ
بعيد ، والروح باليأس مثقل
وغمام الحياة أعشى سوادي
ونور المـي بقلبي توحَل^(٣)
أنا مَيِّتٌ تغافل القبر عني
وهو إن يدرِ شقوتي ما تمهل
فاسكبي لي السَّنا وطوفي بنعشي
ينعش الروح سحرك المتهلل

(١) الدياجير : الظلمات، جمع ديجور . الجنح من الليل : الطائفة منه .
مسبل : مسدل .

(٢) الحُضْم : البحر العظيم التلاطم الموج .

(٣) أعشى سوادي : غطى حل عيني

أنت لي ،

أنت نيمي ، وأيكتي ، وظلاي
وخميلي ، وجدولي المتسلسل^(١)

أنت لي واحدة أفيء إليها
ومجبر الأسى يجني 'مشمعل

أنت ترنيمة الهدوء بشعري
وأنا الشاعر الحزين المبلبل

أنت تهويدة الخيال لأحزا
في ، بأطيف لورها أتعلل^(٢)

أنتِ كأسٍ وكرمقي ومدامي
والطتلا من يدريك سكر محلل^(٣)

(١) الأيكة : الشجرة الكثيفة الملتفة الأغصان .

(٢) أتعلل : أواسي النفس .

(٣) الطلا : الخمر .

أنت فجري على الحقول ، حياة
وصلاة ، ونشوة ، وتهلل
أنت تغريده الخلود بالحسا
في ، وشعر الحياة لتغزو مهلل (١)
أنت طيف الغيوب رفرف بالرحمة
سـ والطهر والهدى والتبتل
أنت لي توبة إذا زلّ عمري
وصحاح الإثم في دمي وتلجل
أنت لي رحمة براهـا شعاع
هل من أعين السما وتنزل (٢)
أنت لي زهرة على شاطئ الآـ
لام تروى بمهجتي ، وتظلل (٣)
أنت شعر الأنسام وسوست الفجـ
سرّ ، وذابت على حفيف السنبـ

(١) الغزو : الهراء الذي لا معنى له .

(٢) براهـا : خلقتها وأوجدتها .

(٣) المهجة : دم القلب ، يقصد بها « الروح » .

أنت سحرُ الغروب، بل موجة الاث
سراق، عن سحرها جنائي يسأل^(١)
أنت صفوُ الظلال تسبح في النـ
سر، وقلوب على ضفاف الجدول
أنت عيد الأطياف فوق الروابي
أقبل، فالربيع للطيـر أقبل
أنت هولي، وحيرتي وجنوني
يومَ للحسن زمسوة وتدلّ
أنت دير الهوى، وشعري صلاة
لك طابت ضراعتي والتدلّ
أنت نبع من الحنان، عليه
أطرق الفن ضارعا يتوسل
أعين للخشوع تغري، فخلب
سها على لوعي تنفض وتُسبل^(٢)

(١) جنائي : فؤادي وقلبي .

(٢) تنفض وتُسبل : تفلق وتنطبق .

واتركها وسحرها يتأدى
 علماً « بابل » بنجواه تشغل
 هو فني وملهمي .. فابغثيه
 فهو من زهوه شحيح مُبْخَل
 يتغافى على الجفون ، فإت نا
 جيته ، لج في الكرى وتوغّل
 وانتشى من سناك وانساب في لح
 ظلك يحسو الضياء منه وينهل^(١)
 وانبرى من جفونك البيض كالآق
 مدار يُردي كما يشاء ويقتل
 ليت لي من صراعه كل يوم
 غزوة في سكون قلبي تجلجل
 ولك الصوت ناعماً عادة الشو
 ق فأضحى حنينه يترسل

(١) يحسو : يرتشف .

فبرات كأنها شجنُ الأو
 ثارِ في 'عودٍ عاشقٍ مَرَحَلٍ' (١)
 أو حفيفُ الأذانِ في مسمع الفج
 سرِّ نديّ الصدى ، شديّ المتهل
 أو غناءُ الظلّال في خاطر الغد
 وانِ شمر في الصمت عانٍ مكبّلٍ (٢)
 أو نشيد أذابه الأفق النّاء
 ئي ، وغناء خاطري المتأمل (٣)
 ولك البسة الوديعه طهر
 وصفاء ، وصبوة ، وتغزل
 لذّة الهمس في دمي تنقل الرو
 ح لواءٍ بصفرٍ عمري مظلّل

(١) مَرَحَل : مشغل ومفارق .

(٢) حان مكبّل : أسير مقيد .

(٣) النّائي : البعيد .

فاسكيبها على جناني ، وخلصني
سحرها في مشاعري ينهدل
ولك الهداة التي تغمز الحسن
فيروى من السكون ويشمل
واحة للجمال ، قلبي فيها
من أمي الدهر ناسك متعزل
علمتني ظلالها كيف أنسى
صخب الوهم وهو عصف مزلزل
ولك المئة التي عاد منها
« مريمي » الستور فوقك مسبل

فتعالني :

فتعالني نقيب عن ضجة الدن
يا ، ونغضي عن الوجود ورحل

وإلى عشنا الجميل ، ففيه
 هزج^(١) للهوى ، وظل^(٢) ، وسلسل^(٣)
 وعصافير للمنى تتغنى
 بالترانيم بين عشب وجدول^(٤)
 وغرام^(٥) مقدس ككاد يضوي
 نوره المذب في سمانا ويشعل^(٦)
 ووفاء يكاد يسطع للندى
 يا بشرع إلى المحبين مرسل
 عاد للعش كل طير ، ولم يب
 سقى سوى طائر شريد مخبل^(٧)
 هو قلبي الذي تناسيت بلوا
 ه ، فأضحى على الجراح يولول

(١) هزج : غناء ومرح . سلسل : الماء المذب الجاري .

(٢) الترانيم : جمع ترنيمه ، الأغنية أو الأنشودة .

(٣) يضوي : يتوهج .

(٤) الجدول : المجنون ، من فقد الوحي والافان .

أقبلني .. قبل أن تميل به الريد
ح' ، ويهوي به الفناء المعجل^(١)
أقبلني .. فالجراحُ ظمأى ، وكأس الـ
حب تكلى ، والشعرُ ناي معطل

(١) المعجل : السريع الأكيد الحدث والوقوع .

فهرس الكتاب

| الصفحة | الموضوع |
|--------|----------------------------|
| ٥ | هذا الكتاب |
| ١٣ | فتاة الخمر |
| ٢٣ | نظم |
| ٤١ | المؤسة |
| ٥٧ | بثينة |
| ٦٩ | لبنى |
| ٨٣ | عزة |
| ٩٥ | وأعطرت ثولوا |
| ١٠١ | فوز |
| ١١٣ | وحيد المغنية |
| ١٢٩ | أراك عصي الدمع |
| ١٤١ | يا ظبية البان |
| | فاروق شوشه |
| | المنخل البشكري |
| | عمر بن أبي ربيعة |
| | مجنون ليلى (قيس بن الملوح) |
| | جميل بن معمر |
| | قيس بن ذريح |
| | كثير عزة |
| | يزيد بن معاوية |
| | العباس بن الأحنف |
| | ابن الرومي |
| | أبو فراس الحمداني |
| | الشريف الرضي |

| | | |
|-----|-------------------|---------------------|
| ١٥١ | دوقلة المنبجي | اليتيمة |
| ١٦٣ | ابن زريق البغدادي | قمر في بغداد |
| ١٧٣ | صفي الدين الحلي | مجلس الحبيب |
| ١٨٧ | ابن زيدون | أضحى التثنائي |
| ٢٠١ | الحصري القيرواني | يا ليل الصب متى غده |
| ٢٠٩ | أبو القاسم الشابي | صلوات في هيكल الحب |
| ٢٢٧ | علي محمود طه | القمر العاشق |
| ٢٣٩ | إبراهيم ناجي | الأطلال |
| ٢٦٥ | محمود حسن إسماعيل | أقبلني كالصلاة |

رقم الإيداع: ٢٢٩٧ / ١٩٩١
التقسيم الدولي: ٨ - ٥٠ - ٠٩ - ٩٧٧

مطابع الشروق

الطبعة ١٦ شارع حوران حسي - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بكريةت عن تـ ٨١٦٤ - هاتف ٣٩٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢٩٣

الموضوعية الاختيار ، المعتمدة في
تصنيفها على ذوق عصري ، وفكر
جديد ، يكشفان في الأثر الأدبي
والشعري أبعاداً جديدة ويعيدان
عرضه وتنسيقه وتنظيم جداوله
وروافده .

وآثرت أن تكون البداية قصائد
الحب في شعرنا العربي ، وما أكثرها ،
وما أحفلها بالقيم الإنسانية والفنية
والحضارية . ماذا لو اخترت من
بينها أجمل عشرين قصيدة ، ليعيد
تأملها وتذوقها القارئ المعاصر ، مع
قدر يسير من التقديم ، للنص
والشاعر معاً ، بحيث يتم وضع
القصيدة في إطار عصرها ، وفي داخل
مناخها النفسي والتاريخي .

ولسنا نزعم أن هذه القصائد ،
هي وحدها أجمل القصائد وأروعها
وأكثرها تمثيلاً لحقيقة شعر الحب في
ديوان الشعر العربي الكبير ، إنه
مجرد اختيار خاص ، ساعد عليه ميل
وهوى ، كثيراً ما تجاذبني إلى بعض
القصائد المختارة ، فعشت فيها
طويلاً ، وتاملتها كثيراً ، فلما سنحت
الفرصة لوضعها داخل هذا الإطار
كانت أسبق من غيرها إلى ذاكرتي
واهتمامي ، فعزيت بها قبل سواها ..

❁ دار الشروق

الطبعة ١٦ شارع حرد حبي - طاب ٢٥٩٦١٥٧٨ - ٢٥٩٦١٥٧٨
مكتبة صر ب ٨١٦٦ - طاب ٢٥٩٦١٥٧٨ - ٨١٦٦٦٦٦

إن شعرنا العربي على امتداد
قرون متطاولة حافظه بالكنوز
التميزية ، والدرر الكامنة ، تنتظر
دائماً من يجلوها ويعرضها .

وفي السوقت نفسه ، مما أندر
المجموعات والمختارات الشعرية
صدرت من مكتبتنا العربية ،
وحديثها ، لتضع بين يدي
العربي ، والقارئ الأجنبي أيضاً ،
تصوراً عاماً لسروح الشعر العربي ،
وإطاراً عاماً لابرز شخصياته
واعلامه ، وأكثر ملامحه صدقاً
واصالة .

وظلت مكتبة الشعر العربي ،
تعاتي هذا الفراغ الكبير ، خاصة
ونحن نتجه مع إيقاع العصر
وإزدحام متطلبات الحياة إلى
المختصرات والمختارات : الميوبة ،



To: www.al-mostafa.com